إنَّ مَثَلَ عيسى عند الله كمَثَلِ آدم



بيمين
دكتور حسن عز الدين الجمل

دار الكتاب العربي

إنّ مثل عيسى
عند الله
كمثل آدم

إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ

بقلم
الدكتور حسن عز الدين الجمل

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.



الرملة البيضاء ـ ملكارت سنتر ـ الطابق الرابع تلفون: ٨٠٠٨٣٢/٨٠٠٨١١/٨٠٥٤٧٨

تلكس: ٤٠١٣٩ L.E. كتاب برقيا: الكتاب ص.ب: ٥٧٦٩ - ١١ بيروت ـ لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدّمـة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشـرف المرسلين سيدنـا محمد عليـه وعلى آلـه أفضل الصـلاة وأتم التسليم .

« وبعد ،

فقـد قال الله تعـالى في كتابـه الكـريم : ﴿ إن هـذا القرآن يهدي للتي هي أقـوم ويبشر المؤمنـين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ فيما يرويـه أبو هـريرة - رضي الله عنه - : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ، كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض » .

نهتدي بالقرآن الكريم والحديث الشريف ونحن أمام كتـاب : « **إن مثـل عيسى عنـد الله كمثـل آدم** » للطبيب الدكتور حسن عزالدين الجمـل الذي تتبـع في كتابـه سبيل

السلف الصالح ، وانتهج منهج البحث العلمي الدقيق ، فضلاً على أنَّه يجيب على كثير من الأسئلة التي تدور في أذهان بعض المستشرقين، وعلى الأسئلة الحائرة في أذهان شباب اليوم .

والمؤلف كطبيب قام بتوضيح بعض المصطلحات الطبية الواردة في الآيات القرآنية خصوصاً تلك التي تحدثت عن مولد سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلوات والسلام . كما أنه تطرق - بتركيز وافٍ مفيد - إلى بداية خلق الانسان ، حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَلقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طين ﴾ وقوله تعالى ﴿ يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلاً ﴾ .

وفي ضوء القرآن الكريم نقدم هذا الكتاب لقراء العربية الذي حاول فيه مؤلفه أن يكون متناسقاً مع الكتاب والسنة فضلاً عما فيه من خلاصة تجاربه وهو يقصد بعمله هذا إبتغاء وجه الله ووجه رسوله الكريم دفاعاً عن القرآن ودفاعاً عن سنة المصطفى ﷺ .

نقدم هذا الكتاب ليكون نبراساً وعوناً للمسلمين لمعرفة دينهم ، وفق الله المؤلف لما فيه الخير والسداد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية
فضيلة الدكتور الشيخ الحسني عبدالمجيد هاشم

اللهم يا الله ؛

إنَّه منك وإليك

وإنه



تقديم الأمين العام
لمجمع البحوث الإسلامية

المقدمة

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

أما بعد ،

فقد دعاني إلى الكتاب في قصة سيّدنا عيسى إحكام المثل الذي ضربه الله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدم ﴾

وهذا من الأَمثال التي يضربُها اللَّهُ للنَّاس لعلهم يتفكرون .

وتفصيل ذلك ؛ أَنه بفضل الله وواسع رحمته تركت المراء إلا مراءً ظاهراً ، ولم أَرجع إلا إلى كتاب الله العظيم وسنَّة نبيّه ﷺ ثم إلى كتب التفاسير المعتمدة . ذلك بأَن الكتاب العزيز لا يأْتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولأَن « القرآن يُصَدِّقُ بعضُه بعضاً »[1] ، ولأَن القرآن ذلول[2] : أَي أَنه موضح لمعانيه حتى لا

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢/١٨١ .

(٢) أخرجه أبو نعيم من حديث ابن عباس .

تقصر عنه أَفهام المجتهدين ، ولأَن كل ما قيل في قصة سيّدنا عيسى يحتمل الخطأْ إلا ما جاء في كتاب الله وعلى لسان رسوله سيّدنا « محمّد » الذي لا ينطق عن الهوى ، ﷺ تسليماً كثيراً .

أَما ما جاءَ في كتب التفسير فقد شدّ إعجابي ما قاله علماؤ نا الأَفاضل . ولا يسعني - وأَنا طالب علم ، وما أُوتيت من العلم إلا قليلاً - إلا أَن أَخذت بعض ما كتب هؤلاء العلماء ، ورثة الأَنبياء(١) ، لم يسعني - في القليل النادر ، إلا أَن أُترجم بعض كلماتهم المضيئة البيّنة إلى لغة الطبّ . وبذلك يتم إن شاء الله حلّ المشكل من الأَخطاء التي يقع فيها كثير من المستشرقين حين يخوضون في هذا القصص الحقّ ، خصوصاً حين يكتبون بلسانهم الأَعجمي عن بعض ما جاء في كتب التفسير ، ثم يمترون فيه سواء بقصد أو بدون قصد . حتى إذا ترجم ، إن شاء الله ، بحثي هذا إلى أَي لغة من لغات العالم يبقى ، بإذن الله ، الاعتقاد الرّاسخ أَن لا إله إلا الله وأَنه تعالى الغني عن الصاحبة وعن الولد ، وحتى لا يقولوا على الله ما لا يعلمون .

ولم أُوثر إلا ما فيه الالتزام التام بالمثل الذي ضربه الله لنا . كما تيسَّر لي - من القرآن - إثبات انطباق المثل بين عيسى وآدم تمام الانطباق .

ولقد حاولت في هذا البحث البسيط التنبيه إلى أَن الخلق أَو

---

(١) البخاري علم ١٠ ، أبا داود علم ١ ، ابن ماجة مقدمة ١٧ ، دارمي مقدمة ٣٢ ، حم ١٩٦/٥ .

التكوين أو التسوية شيء ، ثم البيان أن نفخ الروح شيء آخر . وقد اقتضت الحكمة الإلهية ترتيب النفخ على الخلق ، كما ظهر أَنَّ الروح مُحْدَثة مخلوقة[1] .

أسأل الله العظيم ، ربّ العرشِ الكريم أن يهدينا إلى ما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه . كما أسأله تبارك وتعالى خالصاً أن يتقبل مني هذا العمل الصغير ، أَبْتَغِي بِهِ أكبرَ نعمةٍ تُجزي . وجهَ ربِّي الأعلى .

« وإنَّ ممّا يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته عِلماً عَلَّمه ونشره »[2] .

وأسأل الله الكريم قبل موتي : « أن يزيدني الله عِلماً وفَهْماً »[3] .

مكة المكرمة	الفقير إلى أرحم الراحمين
رجب ١٤٠٣	**دكتور حسن عز الدين**

---

(١) الروح لابن القيم ١٤٤ .
(٢) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٣٢١/٤ مقدمة ابن ماجة ٢٠ .
(٣) كما كان دعاء سيدنا النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما راجع مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣٣٠/١ .

المقام الأول

مقام الخلق أو التسوية أو التكوين

(آمنا به) : وهذا هو الإيمان والتسليم المحض ،
وهذا الايمان لا ينافي العلم فإن جملة (آمنا به)
تتفق تماماً مع الخلق أو التسوية أو النشأة الأولى ،
حدثت في آدم وعيسى بكلمة (كن)
هي (كلمته القاها إلى مريم) فكان ،
يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير .

* ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[1] .

يعني تبارك وتعالى : أَن خَلقَ الله لعيسى من غير أَب مثل خلقِه لآدم من تراب ، ثم قلت له كن فكان ، من غير أَب ولا ذكر ولا أُنثى .

فليس خلقي عيسى من أُمه من غير أَب ، بأَعجب من خلقي آدم من غير ذكر ولا أُنثى ، فكان لحماً[2] ؛ يقول : وأَمري أَن يكون فكان ، فكذلك خلقي عيسى ، أَمرته أَن يكون فكان :

من غير ريث[3] ، أَي إِذا أَراد شيئاً فإِنَّمَا يقول له كن فيكون من غير ريث ولا إِبطاء[4] .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٥٩ .

(٢) الطبري ٣/٢٩٥ .

(٣) أبو السعود ١/٢٣٧ .

(٤) المراغي ٣/١٥٦ .

* ﴿ . . . كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[١] .

والله خَلَقَ بقول : (كُن) فكان ، كما قال تعالى :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي . . . ﴾[٢] .

فسبحان من لا يخلق غيره ولا يعبد سواه[٣] إذ يقول الله عزَّ وجلّ في شأن آدم :

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ « فِيهِ » مِن رُوحِهِ . . . ﴾[٤] .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ « فيهِ » مِن رُوحي . . . ﴾[٥]

وتظهر الهاء في قوله : (فِيهِ) عائدةً على ذِكرِ سيّدنا آدم .

وهذا النفخ (فِيهِ) أَي في سيّدنَا آدم ، يذكّرنا بالنفخ في سيّدنا عيسى ويذكّرنا بِقوله تَعَالى :

* ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا . . . ﴾[٦] .

وقوله : (فِيهِ) أَي في عيسى[٧] وفي قوله تعالى .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٤٧ .
(٢) سورة ص ، آية ٧٢ .
(٣) كتاب التوحيد للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب صفحة ١٩ .
(٤) سورة السجدة ، آية ٩ .
(٥) سورة ص ، آية ٧٢ ، سورة الحجر ، آية ٢٩ .
(٦) سورة التحريم ، آية ١٢ .
(٧) الفخر الرازي ٢٩/٥٠ ، ٢١/٢٠٠ .

* ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُوحِنَا ﴾[1] .

وقوله : (فِيهَا) أي نفس عيسى[2] .

(والتي أَحْصَنَت فَرْجَهَا) قال المفسرون : أنه أراد بالفرج هنا الجيب ، لأنه قال : (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا) وجبريل عليه السَّلام إِنَّمَا نَفَخ في جيبها ولم ينفخ في فرجها وهي في قراءَة أُبيّ بن كعب[3] : فنفخنا في جيبها من روحنا .

وكل خرق في الثوب يسمى جيباً ، ومنه قوله تعالى : (. . . وَمَالَهَا مِن فُرُوج . . .) : أي فتوق[4] ؛

﴿ أَفَلَمْ ينظُرُوا إلى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَاهَا وَمَالَهَا مِن فُرُوج ﴾[5] .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾[6] .

* * *

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٩١

(٢) الفخر الرازي ٢٩/ ٥٠ ، ٢٠/ ٢٠٠ .

(٣) جاء في سنن ابن ماجة ، في المقدمة ، ١١ باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ حديث ١٥٤ عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « . . . وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب . . . » .

(٤) القرطبي ١٨/ ٢٠٣ وكذلك قال الشيخ حسنين محمد مخلوف في كلمات القرآن ٦ - ق/ ٣٩٠ .

(٥) سورة ق ، آية ٦ .

(٦) سورة الأنبياء ، آية ٣٠

* كما نلاحظ تكرار قوله تبارك وتعالى : (الَّتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) من سورة التحريم ، (وَالَّتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) من سورة الأنبياء لتأكيد التَّقي والورع والعفاف والزكاة والعصمة والبراءة لمريم ابنة عمران من كل سوء ومن كل إفك ومن كل شيطان رجيم . والمحصنةُ هي العفيفة[١] .

* ﴿ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ ﴾[٢] .

وَرُوحٌ مِنْهُ .

(وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ) هو كقوله (كُن فَيَكُونُ) عن الحسن وقتادة وجماعة من المفسرين . (وَكَلِمَتُهُ) عطف على رسول الله أي مكوّن بكلمته وأمره الذي هو (كُن) من غير واسطة أَب ولا نطفة[٣] . وهو المعنى الذي فسّرنا[٤] به « الكلمة » في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ) أي أنه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة أَب ولا نطفة .

وكتب الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري[٥] في قوله تعالى : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ) فإنه تعالى ذكره يعني بالكلمة : الرسالة التي أمر الله ملائكته أن تأتي مريم بها ، بشارة

---

(١) الفخر الرازي ٢٩/ ٥٠ وكذلك قال الخازن ١٢٣/٧ وغيرهم .
(٢) سورة النساء ، آية ١٧١ .
(٣) أبو السعود ٤٠١/١ .
(٤) الفخر الرازي ١١٧/١١ .
(٥) الطبري ٣٥/٦ .

من الله لها ، التي ذكر الله جلّ ثناؤه في قوله : (إِذْ قالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنه . .)[1] .

يعني برسالة منه ، وبشارة من عنده .

* وفي تفسير أبي السعود : في قوله تعالى (وَكَلِمَتُه أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ) : قيل أعلمها إيَّاها وأخبرها بها بطريق البشارة وذلك قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ)[2] .

وقيل معناه بشارة الله تعالى التي بشر بها مريم عليها السَّلام على لسان الملائكة كما قال سبحانه (يَا مَرْيَمُ إِنَّ الله يَبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ) ، وجملة (أَلْقَاهَا) حال والتقدير وكلمته ملقياً إيَّاها باعتبار أن المراد بها المُكوَّن[3] والتقدير ، إذ كان أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ .

كما كتب أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي[4] : وقيل (كَلِمَتُهُ) بشارة الله تعالى مريم عليها السَّلام ، ورسالته إياها على لسان جبريل عليه السَّلام ؛ وذلك قوله (إِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَة يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ)[5] .

كما قال محمد بن يوسف أبو حيَّان الأندلسي الغرناطي القاهري : (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ) : (وَكَلِمَتُهُ) : أي وكلمة

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٤٥ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٤٥ .
(٣) الطبري ٦/٣٥ .
(٤) القرطبي ٦/٢٢ .
(٥) سورة آل عمران ، آية ٤٥ .

الله (كُن) ، أي هو مُكَوَّن بكلمته وأمره الذي هو (كُن) (أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ) : أوجد هذا الحادث في مريم وحصَّلهُ فيها[1] أوهي أي الكلمة متعلَق (كُن) عند الإيجاد[2] . أي تعلق إيجاد هذا الحادث على تلك الكلمة .

وجاء في تفسير المنار[3] : (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَم) أي هو تحقيق كلمته التي أَلْقَاهَا إِلى أُمِّه مريم ومصداقُها ، والمراد كلمةُ التكوين أو البشارة . فإنه لما أرسل إليها الملائكة تبشرها « بالولد » ، استفهمت عن طريق الولد فقالت :

﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾[4] .

وما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئاً ، ولكن سألت كيف يكون هذا الولد : أم قبل زوج في المستقبل أم يخلقه الله منها ابتداء ؟

* ﴿ قَالَ كَذَلِكِ الله يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[5] .

فكلمة (كُن) هي الكلمة الدالة على التكوين بمحض قدرة الله تعالى عند إرادته خلق الشيء وإيجاده وقد خلق المسيح بهذه الكلمة[6] .

---

(١) البحر المحيط ٣/٤٠٠ .
(٢) فوائد في مشكل القرآن ، لعز الدين بن عبد السلام ١٠٥ .
(٣) تفسير المنار ٦/٨٢ .
(٤) سورة آل عمران ، آية ٤٧ .
(٥) سورة آل عمران ، آية ٤٧ .
(٦) تفسير المنار ٦/٨٢ .

وإن المراد بالكلمة كلمة التكوين لا كلمة الوحي . ذلك أنه لمَّا كان أَمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره عن البارىء عزَّ وجلَّ مما يعلو عقول البشر عبَّر عنه سبحانه بقوله : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) فكلمة (كُن) هي كلمة التكوين[1] .

وههنا يقال أن كل شيء قد خلق بكلمة التكوين . فلماذا خُصّ المسيح بإطلاق الكلمة عليه ؟ وأُجيب عن ذلك بأَن الأَشياء تنسب فب العادة والعرف العام في البشر إلى أَسبابها ، ولما فقد في تكوين المسيح وعلوق أُمه به ما جعله الله سبباً للعلوق ، وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من « البيوض »(*) التي يتكون منها الجنين ، أُضيف هذا التكوين إلى كلمة الله[2] .

وهنا يظهر أَنه أُطلقت « الكلمة » على المُكَوَّن إعلاماً وبشارة بذلك وأَنه تعالى : (إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) .

* وهذا منتهى البيان إن عبَّر الله عن التَكوين أَو البشارة بالكلمة أَحسن التعبير بقوله (وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ) أَي أَوصلها إليها وبلَّغها إياها[3] .

كما أَن لفظ الخلق يستعمل في الإِبداع والإِيجاد ولو بغير ما يعرف من الأَسباب ، فقال : خلق السَّموات والأَرض . ولما كان

---

(١) تفسير المنار ٣/٣٠٤ .

(*) « البيضات أو البويضات ، وهذه البويضة إذا قيست بحجم الحيوان المنوي من الذكر فهي بيضة كبيرة .

(٢) تفسير المنار ٣/٣٠٤ « كلمة الله » قوله تبارك وتعالى : (كن) .

(٣) تفسير المنار ٦/٨٢ .

إيجاد عيسى على غير المعهود في التوالد لأنه من أُم فقط كان قوله تعالى : (كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[1] .

قالوا إن هذا ورد مورد التمثيل لكمال قدرته ونفوذ مشيئته والتصوير لسرعة حصول ما يريد بغير ريث ولا تأخر بتشبيه حدوث ما يريده عند تعلق إرادته به حَالاً ، بطاعة المأمور القادر على العمل للآمر المطاع . ويسمون الأمر بكن : أَمرَ التكوين[2] ومنه قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾[3] .

أي أراد أن يكونا فكانتا[2] ـ فسبحان الله .

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[4] .

* * *

* ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾[5] .

فلنتدبر قوله تبارك وتعالى : (خلقه مِنْ تُرَابٍ) وإن خلق هذا

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٤٧ .
(٢) تفسير المنار ٣/٣٠٨ .
(٣) سورة فصلت ، آية ١١ .
(٤) سورة البقرة ، آية ١١٧ .
(٥) سورة آل عمران ، آية ٥٩ .

التراب وإبداع السَّموات والأَرض على غير مثال آية من آيات الله .

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(١) .

* ولا يملك الإِنسان مثقال ذرة في السَّموات ولا في الأَرض .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَال ذَرَّة في السَّمَواتِ وَلاَ في الأَرْضِ ﴾(٢) .

* ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ الله مِن شَيءٍ . . . ﴾(٣) .

* ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إبراهيمُ فإن اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(٤) .

وصَدَقَ الله في كِتَابِهِ :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾(٥) .

---

(١) سورة البقرة ، آية ١١٧ .
(٢) سورة سبأ ، آية ٢٢ .
(٣) سورة الأعراف ، آية ١٨٥ .
(٤) سورة البقرة ، آية ٢٥٨ .
(٥) سورة غافر ، آية ٥٧ .

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ للنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] .

* ﴿ أَوْ كالذي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، قَالَ أَنَّى يَحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَم يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً للنَّاسِ ، وَانْظُرُ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحماً ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] .

تأمل ـ رحمك الله ـ المقصود بهذه الآية الكريمة تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم ، وإعادتهم بعد فنائهم ، وأنه الذي بيده الحياة والموت[3] :

(أَوْ كالذي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ) : قيل إنه نَبيّ من بني إسرائيل[4] . (أَنَّى يُحْيِي هَذِه اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) قيل : القرية بيت المقدس (وهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) ، (وَهِيَ خَاوِيَةٌ) : وهي خالية من أهلها وسكانها بعد أن خربها بُخْتَنَصَّر . والعروش : الأبنية والبيوت . كان قيله ما قال (أَنَّى يَحْيِي هَذِه اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) شَكًّا[5] في قدرة الله على إحيائه ، فأراه الله قدرته على ذلك ،

---

(١) سورة النور ، آية ٣٥ .
(٢) سورة البقرة ، آية ٢٥٩ .
(٣) الطبري ٣/٢٩ .
(٤) هو عزير المذكور في القرآن الكريم سورة التوبة ٣٠ الطبري ٣/٢٨ .
(٥) الطبري ٣/٣١ .

بضربه المثل له في نفسه . . . فأراه كيفية إحيائه ذلك ، بما ضربه له في نفسه ، وفيما كان من شرابه وطعامه ، ثم عرفه قدرته على ذلك وعلى غيره ، بإظهاره إحياء ما كان عجباً عنده في قدرة الله إحياؤه لرأيِ عينِه ، حتى أبصره بِبَصَرِهِ . . .

وكان سبب قيله ذلك : من الطبري بإسناده عمن لا يتهم ، عن وهب ابن منبه اليماني : أنه كان يقول : قال الله لإرميا[١] حين بعثه نبياً إلى بني إسرائيل : يا إرميا ، من قبل أن أخلقك اخترتك ، ومن قبل أن أصوّرك في رحم أمّك قدّستك ، ومن قبل أن أخرجك من بطنها طهّرتك ، ومن قبل أن تبلغ السعي نبأتك ، ومن قبل أن تبلغ الأشدّ اخترتك ، ولأمر عظيم اجتبيتك .

فبعث الله تعالى ذكره إرميا إلى مَلِك بني إسرائيل ، يسدّده ويرشِده ، ويأتيه بالخبر من الله فيما بينه وبينه . قال ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل ، ورَكِبوا المعاصي ، واستحلوا المحارم ، ونسُوا ما كان الله صنع بهم ، وما نجاهم من عدوّهم « سنحاريب » فأوحى الله إلى إرميا : أن ائت قومك من بني إسرائيل ، فأقصص عليهم ما آمرك به ، وذكّرهم نعمتي عليهم وعرّفهم أحداثهم . . .

ثم أوحى الله إلى إرميا : إني مهلك بني إسرائيل[٢] . . . فلما سمع إرميا وحي ربّه ، صاح وبكى ، وشقّ ثيابه ، ونبذ[٣]

---

(١) كان ابن عباس يقول : هو عزير . الطبري ٢٨/٣ انظر سورة التوبة ٣٠ .

(٢) الطبري ٣٢/٣ .

(٣) في الثعلبي : وحثي التراب ، أي ألقاه .

الرماد على رأْسه ، فقال : ملعون يوم ولدت فيه ، ويوم لقيت التوراة ، ومن شرّ أَيّامي يوم ولدت فيه ، فما أُبقيت آخر الأَنبياء[1] إلا لما هو شرّ عليّ ، ولو أَراد الله بي خيراً ما جعلني آخر الأَنبياء من بني إِسرائيل ، فمن أَجلي تصيبهم الشقوة والهلاك .

فلما سمع الله تضرعه وبكاءه ، ناداه : إِرميا ، أَشق عليك ما أُوحيت إِليك ؟ قال : نعم يا ربّ ، أَهلكني في بني إِسرائيل ما لا أُسرّ به ، فقال الله[2] : وعزتي العزيزة لا أُهلك بيت المقدس وبني إِسرائيل حتى يكون الأَمر من قِبلك في ذلك ، ففرح عند ذلك إِرميا وطابت نفسه ، وقال : لا والذي بعث موسى وأَنبياءه بالحقّ ، لا آمر ربِّي بهلاك بني إِسرائيل أَبداً ، ثم أَتى مَلِكَ بني إِسرائيل ، وأَخبره بما أَوحى الله إِليه ، ففرح واستبشر . . .

ثم أَنهم لبثوا بعد هذا الوحي ثلاث سنين لم يزدادوا إِلا معصية ، وتمادوا في الشرّ ، وذلك حين اقترب هلاكهم ، فقلّ الوحي ، حتى أَنهم لم يكونوا يتذكرون الآخرة ، وأُمسك عنهم حين أَلهتهم الدنيا وشأْنها ، فقال ملكهم : يا بني إِسرائيل ، انتهوا عما أَنتم عليه قبل أَن يمسكم بأْس من الله ، وقبل أَن يبعث عليكم ملوك لا رحمة لهم بكم ، فإِن ربكم قريب التوبة ، رحيمُ من تاب إِليه ، فأَبَوْا عليه أَن يَنْزِعُوا عن شيء مما هم عليه .

وأَن الله أَلقى في قلب بخَتنصر أَن يسير إِلى بيت المقدس ،

---

(١) آخر الأنبياء من بني إسرائيل .

(٢) الطبري ٣٢/٣ .

فلما فصل سائراً ، أَتى مَلِك بني إِسرائيل الخبر ، فأَرسل المَلِك إِلى إِرميا ، فجاءه فقال : يا إِرميا ، أَين ما زعمت لنا أَن ربنا أَوحى إِليك أَن لا يهلك أَهل بيت المقدس حتى يكون منك الأَمر في ذلك . فقال إِرميا للملك : إِن ربّي لا يخلف الميعاد ، وأَنا به واثق .

فَلما دنا الأَجل واقترب انقطاع ملكهم . وعزم الله على هلاكهم ، بعث الله مَلَكاً من عنده ، فقال له اذهب إِلى إِرميا فاستفته ، فأَقبل الملك إِلى إِرميا ، وقد تمثل له رجلاً من بني إِسرائيل ، فقال له إِرميا : من أَنت ؟ قال : رجل من بني إِسرائيل أَتيتك أَستفتيك ، يا نبيّ الله ، في أَهل رحمي : وصلت أَرحامهم بما أَمرني الله به ، لم آت إِليهم إِلا حُسناً ، ولم آلُهُم كرامة ، فلا تزيدُهم كرامتي إِياهم إِلا إِسْخَاطاً لي ، فافتني فيهم . فقال له : أَحسن فيما بينك وبين الله ، وصل ما أَمرك الله به أَن تصل وأَبشر بخير .

فانصرف عنه الملك ، فمكث أَياماً ثم أَقبل عليه في صورة ذلك الرجل الذي جاءَه ، فقعد بين يديه ، فقال له إِرميا : من أَنت ؟ قال أَنا الرجل الذي أَتيتك في شأْن أَهلي ، فقال له نبي الله : أَوَما طهرت لك أَخلاقهم بعد ، ولم تر منهم الذي تحب ؟ فقال : يا نبيّ الله ، والذي بعثك بالحق ما أَعلم كرامة يأْتيها أَحد من الناس إِلى أَهل رحمة إِلا وقد أَتيتها إِليهم ، وأفضل من ذلك ، فقال النَّبي إِرميا : ارجع إِلى أَهلك ، فأَحسن إِليهم ، أَسأَل الله الذي يصلح عباده الصالحين ، أَن يصلح ذات بينكم ، وأَن

يجمعكم على مرضاته ، ويجنبكم سخطه . فقام المَلك من عنده ، فلبث أياماً ، وقد نزل بختنصر بجنوده حول بيت المقدس أكثر من الجراد ، ففزع منهم بنوا إسرائيل فزعاً شديداً ، وشقّ ذلك على مَلِكِ بني إسرائيل ، فدعا إرميا ، فقال : يا نبيّ الله ، أين ما وعدك الله ؟ فقال : إني بربّي واثق .

ثم إن المَلَك أقبل إلى إرميا وهو قاعد على جدار بيت المقدس ، يضحك ويستبشر بنصر ربّه الذي وعده . فقعد الملك بين يديه ، فقال له إرميا : من أنت ؟ قال أنا الذي كنتُ استفتيتُك في شأن أهلي مرتين ، فقال له إرميا : أو لم يَئْنِ لهم أن يفيقوا من الذي هم فيه ؟ فقال المَلك : يا نبيّ الله كل شيء كان يصيبني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه ، وأعلم أنما قصدهم من ذلك سخطي ، فلما أتيتهم اليوم رأيتهم على عمل لا يرضي الله ، ولا يحبه الله . فقال إرميا : على أيّ عمل رأيتهم ؟ قال : يا نبيّ الله رأيتهم على عمل عظيم من سخط الله ، ولو كانوا على مثل ما كانوا عليه من قبل اليوم لم يشتدّ عليهم غضبي ، وصبرت لهم ورجوتهم ، ولكن غضبت اليوم لله ولك ، فأتيتك لأخبرك خبرهم ، وإني أسألك بالله الذي بعثك بالحق إلا ما دعوت عليهم ربّك أن يهلكهم . فقال إرميا يا مالك السموات والأرض ، إن كانوا على حقّ وصواب فأبقهم ، وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترضاه فأهلكهم . فلما خرجت الكلمة من في إرميا أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس ، فالتهب مكان القُربان ، وخُسِف بسبعة أبواب من أبوابها .

فلما رأى ذلك إرميا صاح وشقّ ثيابه ، ونبذ الرماد على رأسه ، فقال : يا مَلِك السّماء ، ويا أرحم الراحمين ، أين ميعادك الذي وعدتني ؟ فنودي إرميا : إنه لم يُصبهم الذي أصابهم إلا بفُتياك التي أفتيت بها رسولنا ، فاستيقن النَّبيّ إرميا أنها فتياه التي أفتى بها ثلاث مرات ، وأنه ـ أي المَلك ـ رسولُ ربِّه ، فطار إرميا حتى خالط الوحوش ، ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم ، وخرّب بيت المقدس . . . .[1] .

فكانت هذه الواقعة الأُولى التي ذكَّر الله تعالى ذكره نبيّ الله بأحداثهم وظلمهم ، فلما وَلَّى بختنصر عنه راجعاً إلى بابل بمن معه من سبايا بني إسرائيل ، أقبل إرميا على حمار له ، معه عصير من عنب في زُكرة ، وسلة تين ، وكان معه سقاء جديد فملأه ماء أو قلة فيها ماء ، . . حتى أتى إرميا إلياء[2] ، فلما وقف عليها ، ورأى مابها من الخراب دخله شَك فقال : (أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ) وطعامه وشرابه وحماره عنده حيث أماته الله ، ومات حماره معه ، فأعمى الله عنه العيون ، فلم يره أحد (ثُمَّ بَعَثَهُ) الله تعالى : (قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) لم تغيره السنوات التي أتت عليه (وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ) قد هلك وبليت عظامه (وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً للنَّاس) لأنه بُعث شاباً وولده شيوخ[3] ، لم تغيره السنون المائة ، معجزة ظاهرة وحجة على من

---

(١) الطبري ٣/٣٣ .

(٢) إيلياء وتدعى إيلات .

(٣) الطبري ٣/٤٢ .

عرفه من ولده وقومه ممن علم موته ، واحياء الله إياه بعد مماته ، وعلى من بُعث إليه منهم[1] (وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً) : فَبعَثَ الله ريحاً ، فجاءَت بعظام الحمار من كل سهل وجبل ذهبت به الطير والسِباع ، فاجتمعت ، فركب بعضها في بعض وهو ينظر ، فصار هيكلاً لحمار من عظام ، ليس له لحم ولا دم ، ثم كَسَا العظام لحماً ودماً ، فقام حماراً من لحم ودم ليس فيه روح[2] ، ثم أَقبل مَلك يمشي حتى أَخذ بمنخر الحمار ، فنفخ فيه ، فنهق الحمار (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ) فلما عاين من قدرة الله ما عاين (قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قديرُ) .

وثمة موعظة وهي أَن الله تبارك وتعالى وهو الخالق البارىء ـ المصور الحقّ المبين ، وهو القَادر على كل شيء ، قد « بَرَأَ » جسد هذا الذي قال (أَنَّى يَحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) ثم أَبرأَه تعالى ذكره من تغيير السنين فيه ، وكذلك رزقه من طعام وشراب فقد أَبرأَهما الله تعالى من تغيير السنين أَيضاً كدليل أَو علامة (فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ) والبَرَاءُ مشتق من اسمه تعالى البارىء . والبَرَاءُ هو خلوص الشيء من غيره كَتَبْرِئَةِ المريض من مرضه ، والمدين من دينه . تُرَى هل اقتضت حكمة أَحكم الحاكمين أَن يقبض روح هذا النَّبيّ من بني إسرائيل مائة عام حتى يتم تعديلها من شَكّ (أَنَّى . . .) ثم يبسطها فيه نَسَمَةَ عدلٍ تعلم أَن الله على كل شيءٍ قدير ؟

---

(١) الطبري ٣/٤٣ .
(٢) الطبري ٣/٤٠ .

* ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تَحْيِ الْمَوْتَى ، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ فَخُذْ أَربعةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَل مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] .

فقد سأل سيّدنا إبراهيم ربّه أن يريه كيفية إحيائه الموتى ، ليرى ذلك عياناً فيزداد يقيناً إلى علمه . وظاهر من سياق الآية الكريمة (لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) أي لازداد إيماناً مع إيماني . وعن السدّي[2] قال لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، سأل مَلَكُ الموتِ ربَّه أن يأْذن له أن يبشر إبراهيم بذلك ، فأَذن له . . . ثم انطلق ملك الموت . بعد أن بشر سيّدنا إبراهيم بالخُلَّة خُلة الرحمن تبارك وتعالى . وقام إبراهيم يدعو ربّه يقول (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى) حتى أعلم أني خليلك (قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن) بأني خليلك ؟ يقول أَولم تُصَدِّق ؟ (قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) بخلولتِك أي بالخُلَّة .

(قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ) قيل هي : الديك ، والطاووس ، والغراب والحمام .

(فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) بضم الصاد من قول القائل صُرت هذا الأَمر إذا ملت إليه : أَصُور ويقال إني إليكم لأَصور أَي مشتاق مائل ، أَو أَن يصُورها هوي : يميلها . كما يقال صُر وجهك إليّ

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٦٠ .

(٢) الطبري ٤٨/٣ .

أي أقبل إليّ . ويظهر لنا أن معنى قوله تعالى : (فَصُرْهُنَّ إِلَيْك) : أي أملهن إليك أوادعهن بصوتك ليتعرفن عليك حتى تأنس إليك وتصير بحيث تجيب دعوتك . وقد ذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي أنه يقال : عصفور صوّار وهو المجيب إذا دعي . كما أن الصاد والراء تحتملان معنى اصدار الصوت كقوله تعالى : (فَأَقْبَلَت امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ)[1] .

أي في صرخة ورنّة أو في صيحة من الصرير[2] . وقوله تعالى : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً)[3] .

قيل هي لها صوت مع قوتها وشدة بردها . ويقال صرير القلم لصوته (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ) : اجمع الأربعة من الطير إليك . ويفهم من سياق الآية الكريمة الوثاق ثم الذبح ثم نتف الريش ثم التمزيق ثم خلط اللحوم بالريش وبالدماء ، (ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا) أي بَددهن أجزاء على كل جبل والجزء من كل شيء هو البعض منه ، وإنما أمر الله إبراهيم ﷺ أن يجعل الأطيار الأربعة أجزاء متفرقة على كل جبل مما كان لإبراهيم السبيل إلى تفريق أعضاء الأطيار الأربعة عليه ، ثم رجع إبراهيم إلى مكانه الذي كان يناجي فيه إبراهيمُ ربَّه (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الموْتَى) ليرى . . . فبعث الله ريحاً فجاءت بعظام الطير من كل جبل فركبت يتصل بعض كل طير في بعض وسيّدنا إبراهيم ينظر بعينيه أمامه . فصارت

---

(١) سورة الذاريات ، آية ٢٩ .

(٢) قاله ابن عباس . الألوسي ١٢/٢٩ .

(٣) سورة فصلت ، آية ١٦ .

أربعة هياكل لطيور من عظام ليس لها لحم ودم . ثم كسا الله العظام لحمها ودمها وكانت الأربعة الطيور كهيئتهن قبل تفريقهن ليس فيها روح . كل هذا على رأي العين من سيّدنا إبراهيم عليه السّلام .

(ثُمَّ ادْعُهُنَّ) : ثم دعاهن : فقال : « تعالين بإذن الله »[1] وكان هذا كنفخ الروح فيهن ، وكان هذا من مكان قريب ، ولذلك قال : (يَأْتِينَكَ سَعْياً) : أي شدًّا على أرجلهن . وقيل يا إبراهيم ، هكذا يجمع الله العباد ، ويحيي الموتى للبعث (واعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) : واعلم يا إبراهيم أن الله الذي جمع هذه الأطيار كهيئتهن قبل تفريقهن ثم رد إليهن الرُّوح حتى أتيتك سعياً هو الله العزيز الحكيم .

وفيما ذكرت من الآيات دليل على أن التسوية أو التكوين غير نفخ الروح ؛ بل لقد ورد إيضاح ذلك في قصة سيّدنا عيسى : (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِن رَبِّكُمْ : أَنِّي أَخْلُق لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ)[2] .

وتفصيل ذلك من سورة المائدة : (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّين كَهَيْئَةِ الطَيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي)[3] .

---

(١) الطبري ٣/٥٧ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٤٩ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ١١٠

* أي أن الخلق أو التسوية أو التكوين شيء ، ونفخ الروح شيء آخر .

*** أولاً : قصة سيّدنا آدم .**

وبخصوص التسوية ثم نفخ الروح في سيّدنا آدم نزلْت آيات بيّنات :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ « فِيهِ » مِن رُوحِي ﴾[1]

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ « فِيهِ » مِن رُوحِهِ ﴾[2] .

* وهنا نلاحظ أنه قبل نفخ الروح فيه كانت التسوية أو التخليق لقوله تعالى : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ) وقوله تعالى : (ثُمَّ سَوَّاهُ) .

* * *

* ونفخ الروح الإنسانية فيه : أي في سيّدنا آدم لقوله تعالى : (وَنَفَخْتُ « فِيهِ » مِن رُوحي) وقوله تعالى : (وَنَفَخَ « فِيهِ » مِن رُوحِهِ) .

وكأن أمره تبارك وتعالى للتراب والماء ، أو الطين أن يكون على هيئة آدم ، « وإن آدم لمنجدل[3] في طينته » ، كقوله تعالى : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ) .

---

(١) سورة الحجر ، آية ٢٩ - سورة ص ، آية ٧٢ .
(٢) سورة السجدة ، آية ٩ .
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٢٨/٤ .

* وكأن نفخ الروح فيه كقوله تعالى : (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي) .

* * *

*** ثانياً : قصة الإنسان :**

* بخصوص الخلق أو التسوية : قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِين ثُم جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرار مَكِين .

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَة

فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً

فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً

فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً . . . ﴾ .

* * *

* ﴿ . . . . ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحسنُ الخَالِقِينَ ﴾[1] .

* (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ) أي بعد تلك الأطوار ، نفخنا فيه الروح فصيرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم ، أي جعلناه خلقاً آخر مبايناً للخلق الأول حيث صار إنساناً وكان جماداً ، وناطقاً وكان أبكم ، وسميعاً وكان أصم ، وبصيراً وكان أكمه ، وأودع باطنه

---

(١) سورة المؤمنون ، آية ١٢ - ١٤ .

وظاهرة بل كل عضو من أعضائه ، وكل جزء من أجزائه عجائب فطره ، وغرائب حكمه ، لا يحيط بها وصف الواصفين ، ولا شرح الشارحين[1] .

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ « فِيهِ » مِن رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾[2] .

* لاحظ أثر نفخ الروح « فيه » بالتكريم إلى ضمير المخاطب : (وَجَعَلَ « لَكُمُ ») .

وفي قوله تعالى : (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ) احتج أبو حنيفة رحمه الله على أن من غصب بيضة فأفرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لأنه خلق آخر[3] .

* * *

وما زلنا نتابع قصة الإنسان .

* ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ ﴾[4] .

و « السُلالة » الخلاصة التي تسل من بين الكدر[5] ، « فُعالة » : وهو بناء يدل على القِلة . واختلف أهل التفسير في (الإِنْسَانَ) فقال ابن عبَّاس وعكرمة وقتادة ومقاتل : المراد منه

---

(١) الفخر الرازي ٨٦/٢٣ وكذلك نقل عنه الألوسي ١٤/١٨ .
(٢) سورة السجدة ، آية ٩ .
(٣) أبو السعود ٢٦/٤ وكذلك قال إسماعيل حقي في روح البيان .
(٤) سورة المؤمنون ، آية ١٢ .
(٥) الكدر أي الطين يقال : كدر الماء كدراً ، وكدرة الحوض : طينة .

« آدم » عليه السلام ، فآدم سُلّ من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين ، ثم جعلنا الكناية راجعة إلى الإنسان الذي هو ولد آدم ، والإنسان شامل لآدم عليه السّلام وولده . وقيل السلالة هي الأجزاء الطينية المبثوثة في أعضاء ولد آدم التي لما اجتمعت وحصلت في أوعية المنيّ صارت منيًّا[1] في الذكر ، وتعتبر البُوَيْضَةُ في الأُنثى خلاصة الأجزاء الطينية المبثوثة في أعضائها التي لما اجتمعت لتخرج من أحد المبيضين صارت بُيَيْضَةً أو بويضة أو صارت ما يسمى ماء المرأة . وهذا التفسير مطابق لقوله تعالىٰ : (وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِن مَاءٍ مَهِينٍ) .

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾[2] .

والمنيّ ماء الرجل والمرأة[3] أي ما خلق منه حيوان ، والحبل لا يكون إلا من الماءين . و (يُمْنَى) بالياء صفة مَنِيّ ، بمعنى تصب وتراق في الرحم . ولذا سميت « مِنَى » بكسر الميم وفتح النون وتكتب ألفها ياء كـ « إِلَى » وهي قرية بمكة لما يمني فيها من دماء القرابين .

ويظهر أن الإنسان إنما « يتولد » من ماء الرجل وماء المرأة . وهذا الماء إنَّما يتولد من الأغذية ؛ وهي إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانية تنتهي إلى النباتية . والنبات إنما يتولد من صفو الأرض والماء . فالإنسان بالحقيقة يكون متولداً من سلالة من طين .

---

(١) الفخر الرازي ٢٣/٨٥ .
(٢) سورة القيامة ، آية ٣٧ .
(٣) إسماعيل حقي ١٠/٢٥٧ .

* وكذلك تأمل قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَأَيُّها النَّاسُ إن كُنتُمْ في رَيبٍ مِنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلقْنَاكُمْ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ مُخلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً . . . ﴾[1] .

تدبّر قوله تعالى : (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن تُرَابٍ) وفيه وجهان :
أحدهما : إنا خلقنا أصلكم وهو « آدم » عليه السّلام من تراب ، لقوله ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾[2] .

وقوله (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ)[3] .

والثاني : أن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان من نطفة أمشاج تنتج من اختلاط حيوان منوي واحد من خصية الرجل مع بُيَيْضةٍ واحدة من مبيض الأنثى أي أن الإنسان يبدأ بخلية واحدة نتجت من اندماج خلية من الذكر بخلية من الأُنثى تسمى « النطفة الامشاج » أو « البُيَيْضَة المُخصبة » أو « الزيجوت » أو « الخلية الأُولى » . فإن شاءَ الله تبارك وتعالى أن « يُنْبِتَ » هذه الخلية الأُولى ، انقسمت هذه البُيَيْضة بإذن الله في بطن الأُم إلى خليتين ثم إلى أربع ثم إلى ثمان ثم إلى ستة عشر خلية ، ويستمر هذا النمو بهذا الانقسام إلى خلايا ، في متواليات رياضية ، حتى يتم شكل النطفة على هيئة التوتة ، ثم تدخل هذه التوتة من إحدى قناتي الرحم ، إلى داخل الرحم . وبعد وصول التوتة إلى تجويف الرحم ، تمر النطفة

---

(١) سورة الحج ، آية ٥ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٥٩ .
(٣) سورة طه ، آية ٥٥ .

بتغيرات تنقلها إلى طور جديد .

و « النطفة » اسم للماء القليل أيّ ماءٍ كان[١] . وهي ههنا هذه الخلية الأُولى وكأنها حبَّة أو بذرة يزرعها الله تبارك وتعالى داخل رحم الأُم ، إن شاء أَنبتها وقدّرها[٢] . وإن شاء أَسقطها . وما يقوم به الإنسان في هذا الخلق المكرم إن هو إلا غرس أو حرث .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ . أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَه أَم نَحْنُ الخَالِقُونَ ﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ أَأَنتم تَزْرَعُونَه أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾[٣] .

وهذه البذرة تتغذى لتنمو من دم الأُم ، وغذاء الأُم إما حيوان وإما نبات ، وغذاء الحيوان ينتهي قطعاً للتسلسل إلى النبات ، والنبات إنَّما يتولد من الأَرض والماء[٤] فصح قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن تُرَاب ﴾[٥] .

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ﴾[٦] .

ثم تتحرك التوتة في قرارها المكين إلى أَن « تعلق » وتغمس وتغوص[٧] في جدار الرحم . ويظهر أَن هذا الطور من الخلق هو

---

(١) الفخر الرازي ٢٣/ ٩ .
(٢) « وإن ما يقدر في الرحم فسيكون » مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٤٥٠ .
(٣) سورة الواقعة ، الآيات ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ .
(٤) الفخر الرازي ٢٣/ ٩ .
(٥) سورة الحج ، آية ٥ .
(٦) سورة نوح ، آية ١٧ .
(٧) تفسير سورة العلق لجمال الدين عياد .

« العلقة » والله أعلم . وأثناء ذلك يستمر الانقسام بعد أن « علقت » « العلقة » في جدار الرحم . وعند منبت هذه العلقة بجدار الرحم تتكون المشيمة أو السُّرة للامداد الغذائي من الأُم .

ثم تبدأ مرحلة الانقسام السريع التي تتميز فيها جميع الأجهزة ، والأعضاء الأساسية للجسم . وتبدأ مرحلة التخلق وينمو الجنين إلى أن يصبح في حجم القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ ، وعلى شكل القوس ، ثم تظهر الفقرات وكأنها بصمات الضروس والأسنان على تلك المضغة ، أي أن الجنين يكون في حجم وشكل « المضغة » ويظهر البيان القرآني في قوله تعالى : (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً) لأن مكان بصمات الضروس والإسنان من المضغة مكان الفقرات . والفقرات تتحول عظاماً . والله أعلم .

ويستمر الانقسام إلى ملايين الملايين من الخلايا وإلى ما شاء الله ، . . .

واختلف أهل التأويل في قوله (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) ؛ (مُخَلَّقَةٍ) : أي المصوّرة خلقاً تاماً . (وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) : السِّقط أي ما دفعته الأرحام وألقته لأن السِّقط « مخلوق وغير مخلوق »[1] ولا ينفخ فيه الرّوح .

* أما المخلَّقة أي المصوّرة فيبعث الله لها ملكاً يسأل الله تبارك وتعالى : يا ربّ فما صفة هذه النطفة ؟ أذكر أم أُنثى ؟ ما رزقها ؟ ما أجلها ؟ أشقى أو سعيد ؟ فيقال له : انطلق إلى أُم

---

(١) الطبري عن مجاهد ١٧/١١٧ .

الكتاب ، فاستنسخ منه صفة هذه النطفة ، فينطلق المَلك فينسخها ، فلا تزال معه ، حتى يأْتي على آخر صفتها[1] .

وقوله (لِنُبَيِّنَ لَكُمْ) : بقول تعالى ذكره : جعلنا المضغة منها المخلَّقة التامة المصورة ولها نسمة مخلَّقة ولا ينقصها إلا نفخ الروح ، ومنها السِّقط لأَن ليس له روح .

وفي حديث الشعبي : قال في السِّقط . إذا نُكِسَ في الخلق الرابع وكان مخلَّقاً أَي تبيَّن خلقه عَتَقَت به الأُمة ، وانقضت به عِدة الحُرّة[2] .

* وكتب الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، عن داوود عن عامر قال في النطفة والعلقة : « إذا نُكِسَت في الخلق الرابع ، كانت « نَسَمَةً مُخَلَّقَةً » وإذا قذفتها قبل ذلك فهي غير مخلقة »[3] .

والنَّكس في الأَشياء معنى يرجع إلى قلب الشيء ورده وجعل أَعلاه أسفله ومقدمه مؤخره[4] . أَي أَن : « إذا نكست في الخلق الرابع » : إذا قُلِبَ ورُدَّ في الخلق الرابع ، وهو المضغة : لأَنه أَولاً تراب ثم نطفة ثُمَّ علَقة ثم مضغة ، وتبيَّن خلقه أَي تَمَّ التكوين والتصوير ثُمَّ تنفخ فيه الرّوح .

---

(١) الطبري عن علقمة عن عبدالله ١٧/ ١١٧ .
(٢) لسان العرب .
(٣) الطبري ٢٣/ ١١٧ .
(٤) لسان العرب .

جاء في صحيح مسلم بسنده بشرح النَّووي ، الجزء الخامس عشر ، باب القدر قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أَحدكم يجمع خلقه في بطن أُمه أَربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك . ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأَربع كلمات : يكتب رزقه ، وأَجله ، وعمله ، وشقي أَو سعيد » .

وقوله ﷺ في هذا الحديث : « ثم يرسل المَلَك » ظاهره إن إرساله يكون بعد مائة وعشرين يوماً .

وفي رواية : « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأَربعين أَو خمسة وأَربعين ليلة فيقول يا ربّ أَشقي أُم سعيد » .

وفي الرواية الثالثة : « إذا مرّ بالنطفة اثنتان وأَربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصوّرها وخَلَقَ سَمْعَها وبصرها وجلدها » .

وفي رواية حذيفة بن أُسيد « أَن النطفة تقع في الرحم أَربعين ليلة ثم يَتَسَوّر عليها الملك » . يتسور عليها بالسين . قال القاضي والمراد بتسوّر : ينزل ، وهو استعارة من تسورت الدار إذا نزلت فيها من أَعلاها ولا يكون التسور إلا من فوق .

وفي رواية أَن ملكاً موكلاً بالرحم إذا أَراد الله أَن « يَخْلق شيئاً بإِذن الله لبضع وأَربعين ليلة . . . وذكر الحديث .

وفي رواية أَنس « إن الله قد وكَّل بالرحم ملكاً فيقول أَي ربّ نطفة ـ أَي ربّ علقة ـ أَي ربّ مضغة » .

قال العلماء طريق الجمع بين هذه الروايات أَن للمَلك ملازمة ومراعاة لحال النطفة . وأَنه يقول يا ربّ هذه علقة ، هذه مضغة في أَوقاتها . فكل وقت يقول فيه ما صارت إِليه بأَمر الله تعالى وهو أَعلم سبحانه .

ولكلام الملك وتصرفه أَوقات أَحدها حين « يخلقها » الله تبارك وتعالى نطفة ، ثم ينقلها علقة وهو أَول عِلم الملك بأَنه « ولد »[1] . . .

ثم للمَلك فيه تصرف آخر في وقت آخر وهو تصويره وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظمه ، وكونه ذكراً أَم أُنثى . وذلك إنَّما يكون في الأَربعين الثالثة وهي مدة المضغة وقبل انقضاء هذه الأَربعين ، وقبل نفخ الروح فيه ، لأَن نفخ الروح لا يكون إلا بعد تمام صورته[2] .

ويظهر لنا أَن العلقة ـ وهي مخلوقة ـ متى اجتازت مرحلة المضغة إلى طور التخليق وفيه تمام التسوية والتصوير ، فقد أَنشأَها الله خلقاً آخر بنفخ الروح فيها : (فتبارك الله أَحسن الخالقين) . ذلك بأَن الله ، تبارك وتعالى ، البارىء الحقّ قد برأَ له نَسَمَة ، هذه النَسمةُ نَسَمَةُ عدل وفي أَحسن تقويم ، استنطقها الله عزَّل وجلّ وقالت : (بَلى)[3] « وإِن ما يُقدَّر في الرَّحم فَسَيكون »[4] فسبحان

---

(١) لاحظ التعبير اللغوي : وهو أول علم الملك بأنه « ولد » .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/١٩١ .
(٣) سورة الأعراف ١٧٢ .
(٤) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف حم ٣/٤٥٠ .

الله العظيم بارىء النَسَمة ، جعلها تنطق بالحقّ وتُدرك القِيَم الروحية .

ولقد علمنا أنه قبل نفخ الروح فيه لم يكن للجنين في الرحم مستقر .

(وَنُقِرُّ في الأَرْحَامِ مَا نشاءُ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى) وفيه إشارة إلى أَن بعض ما في الأَرحام لا يشاء الله تعالى اقراره فيها بعد تكامل خلقه فيسقط[1] و « الأَجل المسمى » : إقَامته في الرحم حتى يخرج[2] (ثُمَّ نخرِجُكُمْ طِفْلاً) وسيخرج اللَّهُ تبارك وتعالى الطفل إلى الحياة الدنيا للاختبار والابتلاء . ومن أَجل أَن يكون مؤهلاً لهذا الاختبار نفخ الله تبارك وتعالى فيه الروح نَسَمَةَ عَدل تُقدّر القيّم الروحية ، وجعله سميعاً بصيراً .

* ﴿ إنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِن نُطْفَة أَمْشَاج نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾[3] .

﴿ إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكِراً وَإمَّا كَفُوراً ﴾[4] .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ ﴾[5] .

---

(١) إسماعيل حقي ٢/٦٧٣ .
(٢) الطبري ٢٣/١١٨ عن ابن زيد عن ابن وهب .
(٣) سورة الإنسان ، آية ٢ .
(٤) سورة الإنسان ، آية ٣ .
(٥) سورة الملك، آية ٢٠١ .

* وَكَأَن التسوية والتخلق والتصوير ، اعداد لنفخ الروح « فيه » .

* وكَأَن التصوير صورة مقدمة لنفخ الرّوح التي خلقها الله تبارك وتعالى في أَحسن تقويم ، لهذا الطفل . والله تبارك وتعالى خلق الأَرواح قبل الأَجساد[1] .

فسبحان الله العظيم خلق الخلق « فجعلهم أَرواحاً ثم صوّرهم »[2] : فقد جاء في مسند الإمام أَحمد بن حنبل عن أُبيّ بن كعب في قول الله عزَّ وجلّ (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى . . .)[3] .

قال : جمعهم « فجعلهم أرواحاً ثم صوّرهم » فاستنطقهم فتكلموا ثم أَخذ عليهم العهد والميثاق وأَشهدهم على أَنفسهم (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) قال : فإِني أُشهد عليكم السّموات السبع والأَرضين السبع وأُشهد عليكم أَباكم آدم عليه السّلام أَن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا . اعلموا أَنه لا إِله غيري ولا ربّ غيري . فلا تشركوا بي شيئاً ، إِني سأَرسل لكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي ، وأُنزل عليكم كتبي . قالوا : شهدنا بأَنك ربّنا وإِلهنا لا ربّ لنا غيرك . ورفع عليهم آدم ينظر إِليهم فرأَى الغني والفقير ، وحسن الصورة ودون ذلك . فقال : ربّ لولا سويت بين عبادِك

---

(١) القرطبي ١١/٩٠ .

(٢) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٣/٤٣٧ .

(٣) سورة الأعراف ، آية ١٧٢

قال : إنّي أَحببت أَن أُشْكَر . ورأَى الأَنبياء فيهم مثل السُرج عليهم النور خُصُّوا بميثاق آخر في الرسالة والنبوة وهو قوله تعالى :

* ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾[1] .

وعيسى ابن مريم كان في تلك الأَرواح فأَرسله إلى مريم ، فحدّث أُبيّ أَنه دخل من فيها[2] .

وأَخرج ابن جرير وابن أَبي حاتم عن قتادة أَنه سبحانه أَخذ من النَبِيِّينَ عهودهم بتصديق بعضهم بعضاً واتباع بعضهم بعضاً .

وفي رواية أُخرى عنه أَنَّه أَخذ الله تعالى ميثاقهم بتصديق بعضهم بعضاً والاعلان بأَن محمداً رَسُول الله واعلان رسول الله ﷺ أَن لا نبيّ بعده[3] .

* * *

* والروح محدثة مخلوقة[4] :

. . . وهدى الله أَتباع رسوله في هذه المسأَلة للحقِّ المبين والصواب المستبين ، فأَجمعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على أَنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مُدَبَّرة . كما يُعلم بالاضطرار من دينهم صلوات الله وسلامه عليهم ، أَن العالم

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٧ .
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٣٥/٥ .
(٣) الألوسي ١٣٨/٢١ .
(٤) الروح لابن القيم .

حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له . وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة .

والأرواح كلها مخلوقة . وهذا مذهب أهل الجماعة والأثر واحتجوا بقول النبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « الأرواح جنود مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »[1] والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة .

* وكذلك روح عيسى ابن مريم مخلوقة . لا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكوّنها واخترعها ثم أضافها إلى نفسه كما أضاف إليه سائر خلقه قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾[2] .

قال شيخ الإسلام[3] ابن تيمية : روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنَّة . وقد حكي إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمَّد بن نصر المروزي الإمام المشهور الذي هو من أعلم أهل

---

(١) حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، في صحيح البخاري وغيره . وكتاب الروح لابن القيم ١٤٨ ومسند أحمد بن حنبل ٢/٢٩٥ .
(٢) سورة الجاثية ، آية ١٣
(٣) الروح لابن القيم / ١٤٥ .

زمانه بالإجماع ولا اختلاف وكذلك أبو محمَّد بن قتيبة قال في « كتاب اللفظ » لما تكلم على الروح قال : النَسم الأرواح قال : وأجمع النَّاس على أن الله تعالى هو خالق الحبَّة وبارىء النَسمة أي خالق الرُّوح . وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به في هذه المسألة . سألت ـ رحمك الله ـ عن الروح مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ قال : وهذا مما لا يشك فيه من وُفِق للصواب أن الروح من الأشياء المخلوقة .

ولقد صنف الحافظ أبو عبدالله بن منده في ذلك كتاباً كبيراً ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزي وغيره ، والشيخ أبو سعيد الخراز ، وأبو يعقوب النهرجوري ، والقاضي أبو يعلى وقد نصَّ على ذلك الأئمة الكبار وأكدوا تأكيداً أن روح عيسى ابن مريم مخلوقة كسائر الأرواح .

*** ثالثاً : قصة سيدنا عيسى :**

﴿ إِنَّمَا المسيحُ عيسَى ابنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إِلى مَرْيَمَ ﴾ .

* ﴿ ... وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ .

* فالكلمة التي ألقاها الله تبارك وتعالى إلى مريم حين قال له (كُن) فكان عيسى بكن . وليس عيسى هو كن ، ولكن كان بكن . فكن من الله قول[1] .

---

(١) الروح لابن القيم / ١٤٦ .

* (وَرُوحٌ مِنْهُ) : أي ونفخة منه[1] وروح عيسى ابن مريم كانت من تلك الأرواح التي استخرجها الله واستنطقها تبارك وتعالى ، من صلب آدم عليه السَّلام وأخذ عليها العهد على أنه تعالى ربّهم وإلهم ، كما قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني آدَمَ مِن ظُهُورِهم ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا) الآيات . وروح عيسى من تلك الأرواح التي خلقها الله تعالى[2] . وجبريل عليه السَّلام نفخ روح عيسى فيه بأمر الله إياه بذلك ، « فنسب إلى أنَّه روح من الله »[3] ، لأن « النفخ فيه » من روح الله ، ولأن نفخ الروح كان بأمر الله تبارك وتعالى أمر به الروح الأمين جبريلَ عليه السَّلام نعمة من الله ، وتأييداً منه ، على عيسى ابن مريم ووالدته : (إذ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّك بِرُوحِ القُدُس . . .)[4] .

قصة سيّدنا عيسى ابن مريم :

وبعد ، نبدأ هذا القصص الحق حسب تسلسل الأحداث وحسب ترتيبها في القرآن الكريم ، ولنبدأ بما بدأ الله به :

* ﴿ إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[5] .

---

(١) الشيخ الإمام محمد بن جرير الطبري ٦/٤٥ .
وكذلك قال الفخر الرازي ٦/١١٨ .
(٢) الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب كتاب التوحيد ١٩ .
(٣) الشيخ الإمام محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان ٦/٣٥ ، ٣٦ .
(٤) سورة المائدة ، آية ١١٠ .
(٥) سورة آل عمران ، آيه ٤٥ .

(إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ) : والتبشير : أخبار المرء بما يسره من خبر وقوله (بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) يعني : برسالة من الله[1] ، وخبر من عنده ، وهو من قول القائل : أَلقى إليّ فلان كلمة سرَّني بها ، بمعنى : أَخبرني خبراً فرحت به ، كما قال جلّ ثناؤه : (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ) . يعني بشري الله مريم بعيسى أَلقاها إليها وقال قتادة : إن الكلمة التي قال الله عزَّ وجلّ : (بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) هو قوله (كُن) : حدثنا بذلك الحسن بن يحيى ، قال : أَخبرنا عبد الرزاق ، قال : أَخبرنا معمر ، عن قتادة ، قوله (بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) قال : قوله : (كُن) . فسماه الله عزَّ وجلّ كلمته ، لأَنه كان عن كلمته ، كما يقال لما قدر الله من شيء : هذا قدر الله وقضاؤه ، يعني به : هذا عن قدر الله وقضائه حَدَث ، وكما قال جلّ ثناؤه : (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً)[2] .

يعني به : ما أَمر الله به ، وهو المأْمور الذي كان عن أَمر الله عزَّ وجلّ[3] .

وفي لفظ (كَلِمَة) كتب الشيخ محمد رشيد رضا نقلاً عن الشيخ محمد عبده : أَن المراد بالكلمة كلمة التكوين[4] لا كلمة الوحي .

وأَقرب الوجوه إلى الصواب عندي[5] هو أَن الملائكة بشَّرت

---

(١) الطبري ٣/٢٦٩ وكذلك كتب الخازن ١/٢٢٨ وغيرهم .
(٢) سورة النساء ، آية ٤٧ .
(٣) الطبري ٣/٢٦٩ .
(٤) المنار ٣/٣٠٤ .
(٥) الطَّبري ٣/٢٦٩ .

مريم بعيسى عن الله عزَّ وجلّ برسالتِه وكلمتِه التي أَمرها أَن تلقيها إليها : أَن الله خالق منها ولداً من غير بَعْل ولا فَحْل ، ولذلك قال عزَّ وجلّ : (اسْمُهُ المَسِيحُ) فَذُكِّر ، ولم يقل اسمها فيؤنث ، والكلمة مؤنثة ، والكلمة قوله تبارك وتعالى (كُن) وهي أَي الكلمة بمعنى البشارة أَيضاً .

* وكما حصل إطفاء النار بكلمة أَلقاها . . (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)[1] .

﴿ . . . فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2] .

فكذلك خلق الله تبارك وتعالى هذا الحادث في مريم وحصله فيها[3] أَو « أَن الله خالق منها ولداً من غير بعل »[4] . خلقه الله عزَّ وجلّ بكلمة أَلْقَاهَا إلى مريم :

﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلعَالَمِينَ﴾[5] .

وإن كانت كلمته عز وجلّ هي أَمر إلى النَّار أَن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم فهي كذلك بشارة إلى سيّدنا إبراهيم أَن النار تغيّر طبيعتها ولا تحرقه بل تكون برداً وسلاماً عليه ، عليه الصلاة والسّلام . وعلى ذكر البشرى إلى إبراهيم نذكر قوله تبارك وتعالى :

---

(١) سورة الأنبياء ، اية ٦٩ .
(٢) سورة العنكبوت ، آية ٢٤ .
(٣) البحر المحيط ٣/٤٠٠ .
(٤) الطبري ٣/٢٦٩ .
(٥) سورة الأنبياء ، آية ٩١ .

(. . . وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ)[1] .

﴿ وامْرأَتُهُ قَائِمَةً فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ .

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيءُ عَجِيبٌ ﴾ .

﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ الله وَبَرَكَاتُه عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّه حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾[2] .

* * *

* ﴿ وَمَا أَرسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِليهِم مِن أَهْلِ القُرَى . . . ﴾[3] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ . . . ﴾[4] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ . . . ﴾[5] .

وقد احتج الفخر الرازي[6] بهذه الآية الكريمة ، أن مزيم عليها السّلام لم تكن من الأنبياء . وإذا كان كذلك كان الإعداد لأن تلد النَّبيّ ورسولاً إلى بني إسرائيل .

---

(١) سورة الذاريات ، آية ٢٨ .
(٢) سورة هود ، آية ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .
(٣) سورة يوسف ، آية ١٠٩ .
(٤) سورة النحل ، آية ٤٣ .
(٥) سورة الأنبياء ، آية ٧ .
(٦) الفخر الرازي ٤٨/٨ وغيره .

وكان هذا الإعداد والتربية من قَبل ولادتها فوالدها عمران بن ماثان وهو من ولد سليمان بن داود ، وسليمان من ولد يهوذا ابن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم وقد دخل في آل إبراهيم سيّدنا محمد رسول الله ﷺ :

* ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ﴾[1]

وكان والدها « عمران » إماماً[2] في بيت المقدس وعالماً جليلاً من علماء بني إسرائيل وأُمها حَنَّة بنة فاقود وهي أُخت زوج زكريا ، فقد تزوج زكريا وعمران أُختين . وكانوا أَهل بيت من الله جلّ ثناؤه بمكان . فدعت الله أَن يَهَب لها ولداً ، فحملت بمريم ، وهلك عمران[3] . فلما عرفت أَن في بطنها جنيناً قالت إمرأَة عمران :

﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا في بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾[4] .

(مُحَرَّراً) : أَي خالصاً لا يخالطه شيء من أَمرِ الدنيا ، عن مجاهد .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٣٤ .
(٢) الطبري ٣/٢٣٤ .
(٣) الطبري ٣/٢٣٥ .
(٤) سورة آل عمران ، آية ٣٥ .

وَذُرِّيَتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[1] .

كان نذر امرأة عمران خالصاً لله وكانت على رجاء أن يهب لها غلاماً فلما وضعتها أُنثى لم تيأس من رَوح الله وقالت إنِّي سميتها مريم أي العَابِدَةُ عسى أن يتقبلها الله خادمة لبيت المقدس . (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى) كانت تخشى أن تنقص أيام الخدمة أن تبرح الكنيسة لما يصيب الأُنثى من الحيض والأذى . واستجاب الله لأُم مريم فأعاذها الله وذريّتها من الشيطان الرَّجيم .

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ :

نقبل من أُمها لِمَا أَرادت بها للكنيسة[2] .

﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً ﴾ .

وأَنبتها ربّها في غذائه ورزقه نباتاً حسناً ، حتى نمت ، فَكملت امرأة بالغة تامة[3] (وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً) ولم يقل : إنباتاً حسناً * .

﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ .

بمعنى : وكفلها الله زكريا أي ضمها إليه وجعلها معه في محرابه . وكانت أُمها ماتت بعد موت أَبيها .

---

(1) سورة آل عمران ، آية ٣٦ .
(2) عن ابن جريج ، الطبري ٣/٢٤١ .
(3) عن اليزيدي عن أبي عمرو ، الطبري ٣/٢٤١ .

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ﴾ .

فإنه وجد عندها الفاكهة الغضة ، حين لا توجد الفاكهة عند أحد[1] .

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2] .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾

ذلك بأنه لما رأى زكريا ما رأى من نعم الله على مريم ، ومن كمال إيمانها ، وحسن حالها ، واعتقادها أن المسخر لها ، الرازق لما عندها ، هو من يرزق من يشاء بغير حساب . فقد أعطاها الله الرزق في غير حينه ، وأنه تبارك وتعالى لقادر على أن يرزقه ذريَّةً طيبة وأُخِذَ زكريا عن نفسه وغاب عن حسه وانصرف عن العالم وما فيه ، واستغرق قلبه في ملاحظة فضل الله ورحمته ، فنطق بهذا الدعاء :

﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

دعا الله في حال غيبته . وإنما يكون الدعاء مستجاباً إذا جرى به اللسان بتلقين القلب حال استغراقه بالشعور بكمال

---

(١) عن ابن عباس الطبري ٣/٢٤٧ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٣٧ .

الربّ[١] . دعا الله تعالى وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر وكان مضطراً إذ كان أهل زكريا قد انقرضوا[٢] في ذلك الوقت .

﴿ فَنَادَتْهُ المَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي في الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى . . . .

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونَ لِي « غُلامٌ » وَقَدْ بَلَغَنِي الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٍ ؟ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾[٣] .

فلما سمع زكريا النداء بالبشرى جاءه الشيطان فقال : يا زكريا إن الصوت الذي سمعت ليس من الله ، إنما هو من الشيطان ، يسخر بك . . . فشَكَّ[٤] وقال : (أَنَّى يَكُونُ لِي « غُلَامٌ » وكَانَت امرأتِي عَاقِراً وَقد بَلَغْتُ من الكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَينٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً)[٥] .

يقول تبارك وتعالى لزكريا مجيباً له : (قَالَ كَذَلِكَ) يقول : هكذا الأمر كما تَقول من أن امرأتك عاقر ، وأنك قد بلغت من الكبر العِتِيّ ، ولكن رَبُّك يقول : خلق ما بشرتك به من الغُلام الذي ذكرت لك اسمه يحيى عليَّ هين . . .

* ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾[٦] .

---

(١) تفسير المراغي ١٤٨/٣ .
(٢) الطبري ٢٤٧/٣ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ٤٠ .
(٤) الطبري ٢٥٧/٣ ، ٢٥٨ .
(٥) سورة مريم ، آية ٨ ، ٩ .
(٦) سورة مريم ، آية ١٠ .

(قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً) : قال زكريا يا ربّ اجعل لي عَلماً ودليلاً على ما بشرتني به فإن كان هذا الصوت منك ، فاجعل لي آية ، قال الله (آيَتُكَ) لذلك (أَن لا تكلِّم الناسَ ثلاثَ ليالٍ سَوِيًّا) يقول جلّ ثناءه : علامتك لذلك ودليلك عليه : أن لا تكلم النَّاس ثلاث ليال وأنت سويّ صحيح ، لا عِلةَ بك من خرس ، ولا مرض . وعن ابن عبَّاس قال : اعتل لسانه من غير مرض . ويظهر أنّما عوقب[1] بذلك لأنه سأل آية بعد ما شافهته الملائكة مشافهة ، أُخذ لسانه ، حتى ما كان يفيض الكلام إلا أوماً إيماء .

أما مريم الصدِّيقة فلما بشرتها الملائكة « بالولد » ، استفهمت استفهاماً حقيقياً عن طريق الولد وما استبعدت من قدرة الله شيئاً ولم يمسسها طائف من الشيطان ولم تطلب من ربّها آية ولا علامة ولا دليل (وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ[2] رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ القَانِتِينَ)[3] .

وهذا عطاء الله (وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً)[4] .

ولقد اصطفاها الله .

* ﴿ وَإِذْ قَالَتِ المَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ الله اصطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ واصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ ﴾[5] .

---

(١) الطبري ٣/٢٥٩ وكذلك قال ابن حبان ـ البحر المحيط ٢/٤٥١ وغيرهم .
(٢) واحتمل أن تكون الكلمات ما صدر في أمر عيسى عليه السلام ـ البحر المحيط ٨/٢٩٥ .
(٣) سورة التحريم ، آية ١٢ .
(٤) سورة الإسراء ، آية ٢٠ .
(٥) سورة آل عمران ، آية ٤٢ .

والاصطفاء أَخْذُ ما صفا من الشيء كالاستصفاء مَثَّل بِهِ اختياره تعالى إياهم النفوس القديسة وما يليق بها من الملكات الرُّوحانية والكمالات الجِسْمانية المستتبعة للرسالة في نفس المصطفى كما في كافة الرسل عليهم الصلاة والسَّلام . أو فيمن يلابسه وينشأ منه كما في مريم عليها السّلام[1] . ومعنى (اصطفاك) أي اختارك . (وَطَهَّرَكِ) : يعني من مسيس الرجال . وقيل من الذنوب . وقيل من الحيض وكانت مريم لا تحيض قاله الخازن[2] والألوسي[3] ، والفخر الرازي[4] وأبو حيان[5] والقاضي البيضاوي[6] وغيرهم كثيرون ؛ قاله ابن عباس وقال السديّ كانت مريم لا تحيض[7] (واصْطَفَاكِ) : وهذا اصطفاء ثان ولقد ذكر العلماء وجوهاً يتحصل منهما الفرق ؛ فقيل في الاصطفاء الأول أن الله تعالى اختار مريم وقَبِلَها منذورة محررة ولم تحرر قبلها أُنثى وأن الله بعث إليها رزقها من عنده .

ومعنى الاصطفاء الثاني أن الله تعالى وهب لها عيسى من غير أب وأسمعها كلام الملائكة ولم يحصل ذلك لغيرها من النساء ويكاد يكون شبه إجماع من المفسرين أن المراد بالاصطفاء الثاني

---

(١) تفسير أبو السعود ١/٢٩٩ .
(٢) الخازن ١/٢٢٧ .
(٣) الألوسي ٣/١٣٧ .
(٤) الفخر الرازي ٨/٤٧ .
(٥) البحر المحيط ٢/٤٤٢ .
(٦) القاضي البيضاود ٣/٥٣ .
(٧) البحر المحيط ١/٢٢٧ .

أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب[1] . وقيل معنى أنبتها نباتاً حسناً أي جعل ثمرتها[2] مثل عيسى ، وانتصب (نَبَاتاً) على أنه مصدر على غير الصدر[3] إذ قال تعالى : (وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً) ولم يقل . إنباتاً حسناً .

كما روي عن سيّدنا محمّد رسول الله ﷺ أنه قال : « خيرُ نسائها مريمُ بنت عمران ، وخيرُ نسائها خديجةُ بنت خويلد » يعني بقوله خير نسائها : خير نساء أهل الجنّة[4] .

وخير النِساء « أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده » . ويظهر أن عبقرية الأُنثى في رعايتها لزوجها النبيّ أو أن تلد النَّبيّ . أو في رعايتها لزوجها العبقري أو أن تلد العبقري .

التربية والإعداد لأم النَّبيّ :

* ﴿ يَا مَرْيَمُ اقنُتي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[5] .

(اقْنُتِي لِرَبِّكِ) أي أطيعي ربّك[6] وأخلصي الطاعة إليه

---

(1) الفخر الرازي ٤٧/٨ تفسير سورة آل عمران ٤٢ .
(2) البحر المحيط ٤٤١/٢ .
(3) البحر المحيط ٤٤/٢ .
(4) الطبري ٢٦٣/٣ .
(5) الطبري ٢٦٥/٣ عن قتادة وعن السدي وعن مجاهد .
(6) سورة آل عمران ، آية ٤٣ .

تبارك وتعالى وحده وقومي لربّك في صلاة (واسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) .

فلما بيّن الله تبارك وتعالى أنها مخصوصة بمزيد من المواهب والعطايا من الله أوجب عليها مزيداً من الطاعات شكراً لتلك النعم السنية[1] قال المفسرون : وكانت الملائكة فيما ذكر ابن اسحاق تقول ذلك لمريم شِفَاهاً ، وكانت عليها السّلام تقوم في الصلاة حتى وَرِمَت قدماها ، (وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) ولم يقل الراكعات لأن لفظ الراكعين أعمّ فيدخل فيه الرجال والنساء .

وقال الأستاذ الإمام[2] : هو جعلها تلد نبيًّا من غير أن يمسّها رجل فهو على هذا اصطفاء لم يكن قد تحقق بالفعل بل بالإعداد والتهيئة[3] . إعداداً وتهيئة تجعلها تتلقى كلمة التكوين لا كلمة الوحي : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ . . .)[4] .

وكلمة (كُن) هي كلمة التكوين (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ) هي كلمة الله (كُن) وهي هي الكلمة في قوله تبارك وتعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) قوله عزَّ وجلّ (كُن) والله تبارك وتعالى عطاؤه كلام وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

---

(١) الفخر الرازي ٨/٤٨ .

(٢) الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ .

(٣) تفسير المنار ٣/٣٠٠ .

(٤) سورة النحل ، آية ٤٣ .

كلمة الله

إذا حدث أمر عند ذي العرش ، سَمع من دونه من الملائكة صوتاً كجرّ السلسلة على الصفا فَيُغْشَى عليهم ، فإذا ذهب الفزع عن قلوبهم . تنادوا : (مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟) قال فيقول من شاء الله من الملائكة : (الحَقَّ ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ) . هذا ما كتبه عبدالله بن مسعود في قوله تعالى : (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ، قَالُوا الحَقَّ ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ)[1].

تلك الكلمات المحكمات من كلمات الله عزَّ وجلَّ التي تقطع عروق الشرك : (حَتَّى إذا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) : أي زال عنها الفزع ، قاله ابن عباس وغيره[2] . وقال أبو حيان : تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن قوله (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) إنَّما هم الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل وأمر الله تعالى به : سُمعت كجرّ السلسلة الحديد على الصفوان فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة[2]

---

(١) سورة سبأ ، آية ٢٣ .
(٢) كتاب التوحيد للشيخ الامام محمد بن عبد الوهاب وأبنائه .

ونلاحظ أن الله عزَّ وجلّ ذكر هذه الآية في الشفاعة في سياق قوله : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِ اللَّهِ ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ في السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ)[1] .

قال بعضهم[2] : الذين (فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) : الملائكة ، قالوا إنما (فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ) من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله عزَّ وجلّ .

وعن النِّواس بن سمعان رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « إذا أَراد الله تَعَالى أَن يُوحَى بالأَمر تكلَّم بالوحي أَخذَتِ السّموات منه رَجفةٌ ـ أَو قال رَعدةٌ ـ شديدة ، خوفاً من الله عزَّ وجلّ ، فإذا سمع ذلك أَهلُ السّموات صَعَقُوا وخروا لله سُجَّداً ، فيكون أَول من يرفع رأْسه جبريلُ ، فَيُكَلِّمه اللَّهُ من وَحْيِهِ بما أَراد ، ثم يمرُّ جبريلُ على الملائكة ، كلما مرّ بسماءٍ ، سأَله ملائكتُها : ماذا قال ربُّنَا يا جبريل ؟ فيقول قال الحقّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ ، فيقولون كلُّهم مثل ما قال : فينتهي بالوحي إِلى حيث أَمَرَه الله عزَّ وجلّ[2] رواه ابن أَبي حاتم بسنده عن النِّواس بن سِمعان ـ بكسر السين ـ ابن خالد الكلابي ويقال الأَنصاري، صحابي ، ويقال أَن أَباه صحابي أَيضاً[1] .

قوله : « إذا أَراد الله تعالى » فالإرادة صفة من صفات الله عزَّ وجلّ . . ، كما قال تعالى : (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا) .

---

(١) سورة سبأ ، آية ٢٢ .

(٢) كتاب التوحيد .

وقال تبارك وتعالى : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[1] ونحو ذلك من الآيات[2] . وكذلك قوله عزّ وجلّ : (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) .

وكذلك قوله تبارك وتعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) .

وفي ذلك جاءَ في تفسير المنار[3] : (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) أي هو تحقيق كلمته التي ألقاها إلى أمه مريم ومصداقها ، والمراد : كلمة التكوين أو البشارة[4] : (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهُ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) يَنْفُذُها ذلك القول ويخلق منها ما يشاء ، ويحصل فيها ما أراد الله تبارك وتعالى من هذا الحادث الذي تعلق إيجاده على هذه الكلمة (كُن) من الله تبارك وتعالى « فكان » من غير ريث ولا إبطاء[5] (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[6] .

فكلمة (كُن) هي الكلمة الدالة على التكوين بمحض قدرة الله تعالى عند إرادته خلق الشيء وإيجاده وقد خُلق المسيح بهذه الكلمة[7] وإن المراد بالكلمة ؛ كلمة التكوين لا كلمة الوحي . ذلك أنه لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره عن الباريء عزّ وجلّ مما يعلو عقول البشر عبّر عنه سبحانه بقوله : (إِنَّمَا أَمْرُه إذا

---

(١) كتاب التوحيد للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب وأبنائه ٨٦ .
(٢) تفسير المنار ٨٢/٦ .
(٣) كتاب التوحيد .
(٤) تفسير المنار ٨٢/٦ .
(٥) تفسير المنار ٨٢/٦ .
(٦) سورة المائدة ، آية ١٧ .
(٧) تفسير المنار ٨٢/٦ .

أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[1] .

* * *

شرح باقي الحديث عن النِّواس بن سِمعان رضي الله عنه :
قوله « أَن يوحي بالأَمر »[2] فيه بيان معنى الحديث عن أَبي هريرة : « إِذا قضى اللَّهُ الأَمرَ في السماء . . . » .

قوله « تكلم بالوحي » فيه التصريح بأَنه يتكلم بالوحي فيوحيه إلى جبريل عليه السّلام . قوله « أَخذت السموات منه رجفة ـ أَو قال رعدة ـ شديدة خوفاً من الله عزَّ وجلّ » في هذا معرفة عظمة الله ويوجب للعبد شدة الخوف منه تعالى ، وفيه إثبات العلو .

قوله « فإذا سمع ذلك أَهل السموات صعقوا وخرّوا لله سجداً » هيبة وتعظيماً لربّهم ، وخشية لما سمعوا من كلامه تعالى وتقدس .

قوله : « فيكون أَول من يرفع رأْسه جبريل » لأَنه مَلك الوحي عليه السّلام .

قوله « فيكلمه الله من وحيه بما أَراد » فيه التصريح بأَنه تعالى يوحي إلى جبريل بما أَراده من أَمره كما تقدم في أَول الحديث .

قوله « ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مرّ بسماء سأَله ملائكتها » وهذا أَيضاً من أَدلة علو الربّ تعالى وتقدس .

---

(١) تفسير المنار ٣٠٤/٣ ـ سورة يس ، آية ٨٢ .
(٢) كتاب التوحيد ٨٦ انظر بعده .

قوله « ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول : قال الحقّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبيرُ . فَيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عزَّ وجلّ » . وهذا دليل بأنه تعالى قال ويقول . . .[1] .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيّ ﷺ قال : « إذا قضى اللَّهُ الأمرَ في السماء ضَرَبَت الملائكة بأَجْنِحَتِها خَضَعَاناً لقوله ، كأَنَّه سِلسلةٌ على صَفْوان يَنْفُذُهم ذلك (حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا الحَقَّ ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ)[2] .

قوله « في الصحيح » أي صحيح البخاري ، ففي هذا الحديث أن من عرف الله تعالى ذلّ له تعظيماً ومهابةً وخوفاً ، لا سيما عند سماع كلامه تعالى ، لأن قوله « إذا قضى الله الأمر » أي بكلامه ووحيّه إلى جبريل . وقوله « في السّماء » يدل على العلوّ ، ففيه إثبات كلام الله وعلوه على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل . . .

قوله « خَضَعَاناً » مصدر خَضَعَ .

قوله « لقوله » صريح في أنهم سمعوا قوله وأنه بصوت وأن ذلك ينفذ جميع الملائكة أي يسمعونه كلهم . . .[3] .

---

(١) كتاب التوحيد ٨٤ .
(٢) سورة سبأ ، آية ٢٣ .
(٣) كتاب التوحيد ٨٤ .

وكلمته تعالى شيء عظيم تهتز لها السّموات والأرض ومن فيهن :

* ﴿ إِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهُ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ . . . ﴾ وهذا شروع في خبر عيسى والمعنى أَن الملائكة بشرت مريم بالولد الصالح بعد بشراها باصطفاء الله إياها وتطهيره لَها وأَمرها بمزيد عبادته والاستغراق في شكره[1] و (كَلِمَةٍ مِنْهُ) ، تبارك وتعالى كلمة (كُن) ، أَو هي كلمة التكوين أَو البشارة ، وأَنه ، تعالى ، لما أَرسل الملائكة تبشرها بالولد ما استبعدت من قدرة الله شيئاً . وسأَلت كيف يكون هذا الولد ؟ أَمن قِبل زوج أَو تبتدىء فيّ[2] خلقه ابتداء ؟ » (قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ « يَخْلُقُ » مَا يَشَاءُ) . والمراد بالكلمة كلمة التكوين . وقد أُضيف التكوين إلى كلمة الله ، وأَطلقت الكلمة على المُكوَّن إعلاماً وبشارة من الله (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)[3] .

ولما كان إيجاد عيسى على غير المعهود في التوالد لأَنه من أُم فقط كان قوله عزَّ وجل (كَذَلِكِ اللَّهُ « يَخْلُقُ » مَا يَشَاء) يعني يخلق الله « منك » ولداً لك[4] وقالوا هذا مورد التمثيل لكمال

---

(١) تفسير المنار ٨٢/٦ للشيخ الإمام محمد عبده المتوفي سنة ١٣٢٣ هـ كتبه الشيخ محمد رشيد رضا .
(٢) الطبري ٢٧٣/٣ .
(٣) سورة المائدة ، آية ١٧ .
(٤) الطبري ٢٧٣/٣ .

قدرته ، ونفوذ مشيئته ، والتصوير لسرعة ما يريد بغير ريث ولا إبطاء .

ونحن معاشرَ المؤمنين[1] : نقول أن تلك الأشياء المعبّر عنها بالفلتات ، إما أن يكون لها سبب خفي ، وحينئذ يجب أن نهدي هؤلاء الجامدين إلى أن بعض الأشياء يجوز أن يأتِي من غير طريق الأسباب المعروفة فلا ينكروا كل ما يخالفها لاحتمال أن يكون له سبب خفي لم يقفوا عليه . ولا ينزل أمر عيسى في الحمل به من غير واسطة أب عن ذلك .

وإما أن يكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقة لنظام الأسباب ، وحينئذ يجب أن يعترفوا بأن الأسباب الظاهرة المعروفة ليست واجبة وجوباً عقلياً مطرداً ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع على العاقل أن ينكر شيئاً ما ويعده مستحيلاً لأنه لا يعرف له سبباً[2] .

* * *

وهنا ينبغي لنا أن نسأل عُلماء الحيوان : عن إمكان التولد الذاتي أو التبرعم أو التكاثر اللاجنسي أو التكاثر الخضري أو التكاثر إلنباتي أو التكاثر الجسدي كل ذلك معروف وممكن في عالم النبات . فالفسيلة نوع من التبرعم قد تظل متصلة بالأصل أو تنفصل إلى كائن حيّ مستقل .

والتوالد البكري معروف في نحل العسل وينتج عنه الذكور

---

(١) تفسير المنار ٣٠٨/٣ .

(٢) المنار ٣٠٨/٣ .

من النحل . وتنشأ الذكور عادة من بيض الملكة غير الملقح . وقد تضع الملكة بيضاً غير ملقح ، وتصبح الملكة واضعة ذكورٍ فقط نتيجة نفاد الحيوانات المنوية المخزونة بها . وأحياناً تنتج ذكور من الشغالة الواضعة ، والشغالة عبارة عن أنثى غير أن الجهاز التناسلي غير كامل في الشغالة . وهي غير قابلة للتلقيح وهي مع ذلك تضع بيضاً غير ملقح ينتج عنه الذكور فقط .

وتحوي نواة البويضة ١٦ كرموزوم ، وقد تلقح البويضة بأحد الحيوانات المنوية المخزنة في القابلة المنوية في الملكة . والحيوان المنوي يحوي في نواته ١٦ كرموزوم وبذلك فالبويضة المخصبة تحوي العدد الكامل من الكرموزومات وهو ٣٢ . والبويضة المخصبة من الملكة ينتج عنها ملكات أو شغالات[1] ونواتها تحوي ٣٢ كرموزوم . أما نواة البويضة التي ستكون ذكراً فهي تحوي ١٦ كرموزوم فقط فتأمل .

ويمكن تقريب هذه الآية الإلهية من السنن المعروفة في نظام الكائنات بوجهين : أحدهما : أن الاعتقاد القوي الذي يستولي على القلب ويستحوذ على المجموع العصبي يُحدِث في عالم المادة من الآثار ما يكون على خلاف المعتاد . فكم من سليم اعتقد أنه مصاب بمرض كذا وليس في بدنه شيء من جراثيم هذا المرض ، فولَّد له اعتقاده تلك الجراثيم الحيَّة وصار مريضاً ، وكم من امرىءٍ سقى الماء القراح أو نحوه فشربه معتقداً أنه سم ناقع

---

(١) نحل العسل ، للدكتور محمد عباس عبد اللطيف ، دار المطبوعات الحديثة ١٩٦٨ القاهرة .

فمات مسموماً به ، والحوادث في ذلك كثيرة أثبتتها التجارب ، وإذا اعتبرنا بها[1] في أمر ولادة المسيح نقول : « أن مريم لما بشرت بأن الله تعالى خالق لها ولداً بمحض قدرته ، وهي على ما هي عليه من صحة الإيمان وقوة اليقين ، انفعل مِزَاجها بهذا الاعتقاد انفعالاً فعل في الرحم فعل التلقيح »[2] انتهى . وإذا ترجمنا هذا الكلام إلى لغة الطبّ نقول : انفعل مزاجها ـ بإذن الله ـ ثم بهذا الاعتقاد ، انفعالاً فعل في البويضة فعل الانقسام والتوالد . . *

* ثم كان نفخ الروح الذي ورد في سورة مريم متمماً لهذا التأثير .

* * *

ولا نرى أقرب من قوله تبارك وتعالى : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كَن فَيَكُونُ) .

وإن نرى في هذا الخلق إلا استجابة دعوة امرأة عمران .

وللذين يبتغون تقريب هذه الآية الإلٰهية نقول : تبدأ قصة سيّدنا عيسى ابن مريم من بعد أن أنبتها الله تبارك وتعالى في رزقه حتى تمت فكملت امرأة بالغة تامة[3] ، وبعد هذا الاصطفاء والإعداد لأم النّبيّ وبعد أن ذكرنا معنى قولِه تبارك وتعالى :

---

(١) تفسير المنار ٣/٣٠٩ .
(٢) تفسير المنار ٣/٣٠٩ قبل الترجمة إلى لغة الطب .
(٣) عن اليزيدي عن أبي عمرو . الطبري ٣/٢٤١ .

(وَكَلِمَتُهُ) ، و (كلمةٍ مِنْهُ) وأنها قوله عزَّ وجلَّ (كُن) وأنها في قصة سيدنا عيسى هي كلمة التكوين . . . فلما كانت مريم تامة البلوغ فيكون التكوين من ماء مريم وفي مريم . والأطباء يسمون ماء المرأة بُويضة وما حدث ـ والله أعلم ـ بكلمة التكوين هو فَطْرِ[1] تلك البُييضة لتبدأ في الانقسام لينمو هذا الحادث الذي خلقه الله تبارك وتعالى علقة ثم خلقه الله مضغة مُخلَّقة . . . أي بكلمة منه عزَّ وجلّ انقسمت البُويضة وكأنها نطفة أمشاج وما هي بأمشاج إن هي إلا نطفة من مريم . (يَخْلُقُ مَا يَشَاء واللَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِير) ، وقد أُضيف هذا التكوين إلى كلمة الله ، وأُطلقت الكلمة على المُكَوَّن إعلاماً وبشارة وأنه تبارك وتعالى (إِذَا قَضَى أَمْراً فإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) . وسبحان الله العظيم فالق الحبة ، وسبحان الله الذي خلق الإنسان من علق ، و (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مما تُنبِتُ الأَرضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)[2] .

وهنا الخلق إرادة الله بمحض قدرته تعالى ونفوذ مشيئته والتصوير لسرعة حصول ما يريد بغير ريث ولا تأخر . وتشبيه حدوث ما يريده عند تعلق إرادته به حالاً ، بطاعة المضمور القادر على العمل للأمر المطاع[3] (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[4] .

---

(١) فطر أو فلق أو شق .
(٢) سورة يس ، آية ٣٦ .
(٣) تفسير المنار ٣/٣٠٨ .
(٤) سورة يس ، آية ٨٢ .

ولقد كتب إسماعيل حقي في تفسيره الكبير : « فإن قلت ثبت أن ماء الرجل يكون منه العظم والعصب ، وماء المرأة يكون منه اللحم والدم . فكيف جاء عيسى مركباً من هذه الأجزاء ؟ قلت : خروجه على الصورة البشرية كامل الأجزاء إنّما هو من أجل أمّه لأن ماءَها مُحقّق[1] . انتهى .

* وإذا ترجمنا هذا إلى لغة الطبّ نقول : ثبت أن الولد يرث نصف صفاته من الأم ويرث النصف الآخر من الأب . فكيف جاء عيسى كامل الصفات من أم ولا أب ؟ قلت : وَرِثَ عيسى كل صفاته الوراثية عن آل عمران عن طَريق أُمّه فقط (كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أمراً فإِنَّمَا يَقُولُ له كُن فَيَكُونُ)[2] .

* ومريم ابنة عمران ، ولقد اصطفاها الله عزَّ وجلّ مرتين (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ واصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ)[3] .

اقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن يرث صفاتِه كلَّها من أمّه . لأن هذه الصفات لا يمكن أن توجد أحسن منها لمولود لها . واللَّهُ أعلمُ حيث يجعل رسالَته ، وَليجعل الله تبارك وتعالى هذا الحادث ، بعد نفخ الرّوح فيه ، آيةً لِلنَّاسِ .

وتعتبر هذه النشأة الأولى لهذا الحادث من مريم عليها السّلام : (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ)[4] .

---

(١) روح البيان ، لاسماعيل حقي . المطبعة العثمانية ٥٣٥/٢ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٤٧ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ٤٢ .
(٤) سورة الواقعة .

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَشْأَةَ الأُولى) : من خلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة . وقال قتَادة : « هي فطرة آدم عليه السّلام من التراب ولا ينكرها أحد »[1] كما أن المثل بين عيسى وآدم لا ينكره أحد . فطرة عيسى من مريم كمثل فِطرة آدم من التراب . (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلى مَرْيَمَ) فطر الله تبارك وتعالى هذا الحادث من مريم وحصّله فيها . تماماً كما أوجد الله عزَّ وجلّ ذلك الحادث المنجدل في طينته على هيئة آدم من أديم الأَرض وحصله منها . « وإن آدم لمنجدل في طينته » من كلام سيّدنا محمّد عبدالله ورسوله ﷺ : فقد ورد في مسند أحمد بن حنبل عن العرباض بن سارية السلمي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّي عبدالله في أُم الكتاب لخاتم النَّبيين وإن آدم لَمُنْجَدِلٌ في طينته . وسأُنبئكم بتأْويل ذلك ؛ دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى قومه ، ورؤ يا أُمي التي رأَت أنَّه خرج منها نور أَضاءَت له قصور الشام . وكذلك ترى أُمهات النبيِّين صلوات الله عليهم »[2] .

* ﴿ وَاذْكُر في الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ﴾[3] .

يقول تبارك وتعالى لنبيّه سيِّدنا محمَّد ﷺ : واذكر ، يا محمّد في كتاب الله الذي أُنزل إليك بالحقّ ، مريم ابنة عمران حين

---

(١) تفسير أبو السعود ٥/١٣٣ وكذلك الألوسي ١٢٧/٢٧ وكذلك اسماعيل حقي ٢٢١/٤ وغيرهم كثيرون .
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٢٨/٤ .
(٣) سورة مريم ، آية ١٦ .

اعتزلت من أهلها ، وانفردت عنهم إلى مكان شرقي بيت المقدس للتعبد . وصف المكان بشرقي لأنه كان مما يلي بيت المقدس ، وسبب كونه في الشرق أنهم كانوا يعظّمون جهة الشرق حيث تطلع الشمس[1] .

* وعن الطبري بإسناده قال : حدثنا خالد بن عبدالله ، عن داوود ، عن عامر ، عن ابن عبّاس ، قال[2] : إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة ؟ لقول الله : (إذ انْتَبَذت من أهلها مكاناً شرقياً . . .) .

* كما جاء في التفسير الكبير للإمام محمد بن جرير الطبري : وبإسناده ، عن ابن عبّاس ، قال : إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت ، والحجّ لله ، وما صرفهم عنها إلا قيل ربّك (إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً) فصلوا قبل مطلع الشمس[3] .

* كما روي أصحاب السنن : كان ﷺ إذا حزَبَه أمر فزع إلى الصلاة .

فما هو الأمر الذي حَزَبَ مريم حتى تتخذ من دون أهلها ستراً يسترها عنهم وعن النَّاس ؟

* ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً . . . ﴾ * * *

---

(١) البحر المحيط ٦/١٨٠ .
(٢) الطبري ١٦/٥٩ .
(٣) الطبري ١٦/٦٠ .

ويظهر ـ والله أعلم ـ أن الأمر الذي حَزَبَ مريم عليها السّلام هو ما قاله علماؤنا :

إتهام مريم عليها السّلام[1] :

يروى أن مريم لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل صالح من أقربائها يخدم معها بيت المقدس ، يقال له يوسف النجار ، فلما رأى ثقل بطنها أنكر ذلك من أمرها ، ثم صرفه ما يعلم عنها من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها . ثم تأمل ما فيه فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه ، فحمل نفسه أن عرّض لها في القول ، فقال : يا مريم إنّي سائلك عن أمر فلا تعجلي عليّ ، قالت : ما هو؟ قال : هل يكون قط شجر من غير حبّ ؟ وهل يكون زرع من غير بذر ؟ وهل يكون ولد من غير أب ؟ قالت : نعم ، وفهمت ما أشار إليه ، أما قولك هل يكون شجر من غير حبّ وزرع من غير بذر ، فإن الله خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حبّ ولا بذر ، وهل يكون ولد من غير أب ، فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم . . . قال لها فأخبريني خبرك ، فقالت : إن الله بشرني (بِكلمةٍ مِنْهُ اسمُه المسيحُ عِيسى ابنُ مَرْيَمَ)[2] .

فعرف أنها بريئة وأن الحمل الذي بها إنما بمشيئة الله وإرادته الحكيمة[3] . . . وروى السّدي بإسناده عن الصحابة أن مريم

---

(١) النبوة والأنبياء لمحمد علي الصابوني ١٩٣ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٤٥ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٢/٦٥ .

دخلت يوماً على أُختها ـ زوج زكريا ـ فقالت امرأة زكريا : يا مريم أشعرتِ أني حُبلى ؟ فقالت مريم : أشعرت أيضاً أني حُبلى ، فاعتنقتها وقالت لها أُم يحيى : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك . . . قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السّلام على يحيى ، قال وبلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى ابن زكريا ابنا خالة[1] .

وقد شاع الخبر في بني اسرائيل أن مريم حامل ، اتهموها في يوسف النجار وكانوا ظالمين . فما دخل على أهل بيت من الهمّ والحزن كما دخل على آل زكريا[2] .

* من أجل هذا البهتان العظيم اعتزلت مريم أهلها إلى مكان شرقي ، لجأت إلى الله واعتصمت بالله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِراطٍ مُستقِيمٍ ﴾[3] .

وكأنها عليها السّلام تقول مثل قيله ﷺ : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[4] .

ويظهر أن هذا هو السبب الذي من أجله اعتزلت مريم أهلها إلى المكان الشرقي . والله تبارك وتعالى أعلم .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٦٥/٢ .
(٢) النبوة والأنبياء ١٩٣ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ١٠١ .
(٤) سورة الزخرف ، آية ٨٨ .

المقام الثاني

مقام نفخ الروح فيه
أو مقام الخلق الآخر

(كل من عند ربنا) وهذا يتفق تماماً مع قوله تبارك وتعالى (وروح منه) : لأن الأمر منه ، والروح منه ، والرزق منه ، والرحمة منه وسبحانه عز وجل بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

وَرُوحٌ مِنْهُ *

(ورُوحٌ مِنْهُ) : أَي ونفخة منه[1] وهي نفخة جبريل بإِذن الله .

(وَرُوحٌ مِنْهُ) : أَي من خلقه وهذا مثل قوله[2] :

(وَسَخَّرَ لَكُم مَا في السَّمٰواتِ وَمَا في الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)[3] .

(وَرُوحٌ مِنْهُ) : كان روح عيسى من تلك الأَرواح التي أَخذ الله عليها الميثاق ، فأَرسل ذلك الروح إلى مريم حين انتبذت من أَهلها مكاناً شرقياً[4] . . .

* ﴿ . . . فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا ﴾ .

---

(١) الطبري ٦/٣٥ .
(٢) القرطبي ٦/٢٣ - ٤/٦٨ القرطبي .
(٣) سورة الجاثية ، آية ١٣ .
(٤) الروح لابن القيم ١٥٧ .

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ « غُلاماً » زَكِيًّا ﴾[١] .

* (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا) : جبريل عليه السَّلام[٢] .

* (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً) يعني في صورة رجل من بني آدم معتدل الخلق[٣] ، فخافت مريم رسولنا ، وظنته رجلاً يريدها على نفسها . فقالت وهي لا ترى إلا أنه رجل من بني آدم : (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنكَ) ، تقول : استجير بالرحمن منك أن تنال مني ما حرّمه الله عليك إن كنت ذا تقوي له ، تتقي محارمَه ، وتجتنب معاصيه ، لأن من كان تَقِياً ، فإنه يجتنب ذلك[٣] . روي عن ابن عبَّاس أنها لما قالت (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ . . .) تبسّم[٤] جبريل عليه السّلام وقال (إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا) . ولقد جَاءَها جِبريل عليه السَّلام في صورة رجل من بني آدم مستوى الخلقة ، لأنها لم تكن لتطيق أن تنظر إلى جبريل في صورته المَلكية وإنَّما مُثِّل لها في صورة الإنسان حتى لا تنفر عنه وحتى تقدر على استماع كلامه . ولقد عَلمت أنه من عندِ الله حين قال لها (لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيًّا) وقرأ الجمهور وباقي السبعة : (لِأَهَبَ) بهمزة المتكلمِ وأسند الهبة إليه لما كان الإعلام بها من قِبَله[٥] لأنه أول من أعلمها .

---

(١) سورة مريم ، آية ٩١ .

(٢) الطبري ١٦/٦٠ عن الصحابة .

(٣) الطبري ١٦/٦١ .

(٤) الألوسي ١٦/٧١ .

(٥) البحر المحيط ٦/١٨٠ .

* وكَأَنَّ الخطاب لمريم خاصَّة ، لأَن مريم ابنة عمران نعلم علم اليقين أَن الذي وهب لها الولد هو الله الذي لا إِله إِلا هو . وفي ذلك دليل أَن هذا الحوار كان له ما قبله .

* من أَجل ذلك ورد في تأْويل (لِأَهَبَ) ما كتبه المفسرون أنه يجوز أَن يكون حكاية لقوله تعالى بتقدير القول[1] أَي ربّك الذي قال أَرسلت هذا المَلك لِأَهَبَ لك . ويؤ يده قراءة شيبة وأَبي الحسن وأَبي بحرية والزهري وابن مناذر ويعقوب واليزدي وأَبي عمرو ونافع في رواية (لِيَهَبَ)[2] . وقيل (لِأَهَبَ) أَي لأَكون سبباً في هبته بالتفخ في الدرع[2] . وقيل غير ذلك . وتظهر قراءة حفص عن عاصم (لِأَهَبَ لَكِ « غُلَاماً » زَكِيًّا) لأَنه سبق للملائكة أَن بشرتها « بالولد » بكلمة من الله تبارك وتعالى الذي لا إِله إِلا هو والذي عطاؤ ه كلام وإِذا قضى أَمراً فإِنَّما يقول له كُن فيكُونُ ، وَإِنَّما هو كلام الله نزل به الروح الأَمين : (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ « غُلَاماً » زَكِيًّا) . .

* (لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيًّا) قال (غُلاماً) والغلام هو منْ حين أَن يولد إِلى أَن يشيب ، ويطلق أَيضاً على الكهل . قال ابن الأَعرابي : يقال فلان غلام النَّاس وإِن كان كهلاً ، كقولك فلان فتي العسكر وإِن كان شيخاً[3] .

* (زَكِيًّا) : طاهراً من الذنوب ، وقيل نبيًّا ، وقيل نامياً على

---

(١) الألوسي ٧١/١٦ وغيره .

(٢) أبو السعود ٢٧٨/٣ وكذلك الألوسي ٧١/١٦ .

(٣) تاج العروس لمحب الدين محمد الحنفي القاهري .

الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح . فالزكا شامل للزيادة المعنوية والحسيَّة .

* ولما قال لها جبريل عليه السّلام (لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا) أيقنت أنه رسول الله وأن الله تبارك وتعالى أرسله إليها ليثبّت فؤادها * بعد أن لجأت إلى الله واعتصمت بالله في ذلك المكان الشرقي ، واطمأنت إلى المَلك وسألته أن يفسر لها ما تمّ لها من بشري الملائكة خصوصاً بعد أن اتهمها بنو إسرائيل في يوسف النجار . .

* ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي « غُلَامٌ » وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[1] .

* وظاهر في هذه الآية الكريمة من سورة مريم اتهام قومها لها وهي تنفيه عن نفسها بقولها (وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)[2] .

* ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾[3] :

كذلك قال ربك من قبل ، لما سبق أن قالته لها الملائكة في بشارتِها لها من قبل من سورة آل عمران (كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) الآية ٤٧ .

* ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾[3] .

---

(١) سورة مريم ، آية ٢٠ .
(٢) (ولم أك بغيا) نلاحظ أنها لم تذكر البغي في سورة آل عمران لأنه لم يكن ثمة اتهام .
(٣) سورة مريم ، آية ٢١ .

أي (نفخ الروح) فيه - بإذن الله - عَلَيَّ هين : أي على جبريل عليه السّلام وهذا لا يحوجنا إلى إضمار القول[1] لأن المُخَاطِبَ لها جبريل عليه السلام وقوله عزَّ وجلّ (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) يحتمل أن يكون على لسان جبريل عليه السلام والله تبارك وتعالى أعلم .

* ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾[1] .

أي وليجعل الله تبارك وتعالى هذا المخلوق الذي سبق أن خلقه الله عزَّ وجلّ من مريم بكلمة منه ، ليجعله الله تبارك وتعالى بعد نفخ الروح فيه ، (آيةً) وبرهاناً للناس جميعهم أو المؤمنين[2] لما روي عن ابن عبَّاس .

* (وَلِنَجْعَلَهُ) ليس متعلقاً بمحذوف[3] . والأقرب أن نقول سبق الخلقُ النفخَ ، أو أن نقول : (وَلِنَجْعَلَهُ) : أي لنجعل هذا الحادث (آيَةً لِلنَّاسِ) وذلك ينفخ الروح فيه . . . والمعنى أنشأنا فيه خلقاً آخر[4] .

* ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ .

(ورحمة منا) : لمن آمن به[5] ، (ورحمة منا) للمؤمنين[6] .

---

(١) سورة مريم ، آية ٢١ .
(٢) الألوسي ١٦/٧٣ .
(٣) (ولنجعله) متعلق بمحذوف أي نخلقه لنجعله . القرطبي ١١/٩١ .
(٤) الألوسي ١٨/١٤ .
(٥) القرطبي ١١/٩١ .
(٦) الألوسي ١٦/٩١ .

* ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَقْضِياً ﴾ . أي مقدراً في اللوح مسطوراً[1] .

(وَكَانَ أَمْراً مَقْضِياً) من سورة مريم يقابله قوله تبارك وتعالى : (إِذا قَضَى أَمْراً فإِنَّمَا يقُولُ لَهُ كُن فَيكُونُ) من سورة آل عمران . (كُن فَيَكُونُ) هذا ما سبق في البشارة من قوله عزَّ وجلّ (بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) أي قوله تبارك وتعالى (كُن) فسماه الله عزَّ وجلّ (كَلِمَتُهُ) من سورة النساء لأنه كان عن كلمته ، كما يقال هذا قدر الله وقضاؤه يعني به هذا من قدر الله وقضائه حدث[2] . هذا ما تم ن سورة آل عمران .

* ثم كان نفخ الروح الذي ورد في سورة مريم متمماً لهذا الحادث[*] .

وفي قوله تبارك (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ) دليل على أنه مخلوق (لِنَجْعَلَهُ) : أي لنجعل هذا الحادث بعد نفخ الروح فيه (آيةً للنَّاسِ) . يستدلون به على كمال قدرة الله .

وكما سبق الخلقُ أو التسوية نفخَ الروح في آدم . كذلك سبق الخلقُ أو التسوية النفخَ في قصة سيّدنا عيسى ابن مريم أي أنه بنفخ الروح فيه أي في هذا الحادث الذي سبق أن حصّله تعالى في مريم[3] ، وخلقه منها[4] ، ثم بروح منه أو بنفخة منه ـ وهي نفخة

---

(١) القرطبي ١١/٩١ .
(٢) الألوسي ١٦/٩١ .
(*) تفسير المنار ٣/٣٠٩ .
(٣) البحر المحيط ٣/٤٠٠ .
(٤) الطبري ٣/٢٦٩ .

جبريل ـ أنشأه الله تبارك وتعالى خلقاً آخر أو أنه عيسى ابن مريم ، عبدالله ورسوله ، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾[1] .

* وهذا الحادث الذي خلقه الله تعالى من مريم ، وحصّله فيها ، وهذا الحادث ـ قبل نفخ الروح فيه ـ هو شيء ، غير أنه لم يكن شيئاً مذكوراً وهذا يذكرنا بقوله تعالى :

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾[٤] .

يعني جلّ ثناؤه بقوله (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ) قد أتى على الإنسان ، والإنسان الذي قال جلّ ثناؤه في هذا الموضع (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ) هو « آدم »[٣] ﷺ . وذلك لقوله قتادة : حدثنا ابن عبد الأعلى ، قال : ثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن قتادة قوله : (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكن شَيْئاً مَذْكُوراً) قال كان « آدم » ﷺ آخر ما خلق من الخلق . وقوله (حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ) اختلف أهل التأويل في هذا الحين الذي ذكره الله في هذا الموضع ، فقال بعضهم هو أربعون سنة ، وقالوا : مكثت « طينة آدم »[٤] مُصوَّرة لا تنفخ فيها الروح أربعين عاماً ، فذلك قدر الحين الذي ذكره الله في هذا الموضع ؛ قالوا : ولذلك قيل (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حينٌ مِنَ الدَّهْر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً)

---

(١) سورة المؤمنون ، آية ١٤ .
(٢) سورة الإنسان ، آية ١ .
(٣) الطبري ٢٩/٢٠٢ .
(٤) « وإن آدم لمنجدل في طينته » مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٢٨/٤ .

لأنه أتى عليه وهو جسم مُصَوَّر لم تنفخ فيه الروح أربعون عاماً ، فكان شيئاً ، غير أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، قالوا : ومعنى قولِه (لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً) : لم يكن شيئاً له نباهة ولا رفعة ، إنَّمَا كان طيناً لازباً ، وحمأً مسنوناً .

وغير مفهوم في الكلام أن يقال : أتى على الانسان حين قبل أن يوجد ، وقبل أن يكون شيئاً ، وإذا ألايد ذلك قيل : أتى حين قيل أن « يُخلق »[1] ، ولم يقل أتى عليه[2] .

* وبالقياس على قصة سيّدنا آدم نقول في قصة سيّدنا عيسى أن هذا الشيء الذي خلقه الله تعالى من مريم ، بكلمة منه أو بكلمة ألقاها إلى مريم ، فكان شيئاً ، غير أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ولذلك قال المفسرون : هذا الحادث قطعة من مريم ابتدأ خلقه منها ولم يقولوا سيّدنا عيسى ذلك بأننا لا يمكننا أن نقول في هذا المخلوق إنَّه عيسى ابن مريم إلا بعد نفخ الرُّوح فيه .

* وغير مفهوم في الكلام أن يقال : إن جبريل عليه السّلام ينفخ في صورة عيسى قبل أن توجد تلك الصورة . وغير مفهوم في الكلام أن يقال إن جبريل عليه السلام ينفخ في « طينة عيسى » قبل أن توجد تلك « الطينة »[3] .

---

(١) هذا يذكرنا بما سبق ذكره في السقط أنه مخلوق وغير مخلوق .

(٢) الطبري ٢٠٢/٢٩ .

(٣) « طينة عيسى » استعيرت جملة « طينة » اعتصاماً بالمثل الذي ضربه الله لنا : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) ، واقتباساً من قوله ﷺ : « وإن آدم لمنجدل في طينته » مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٢٨/٤ .

والطِّينة : الخِلْقة والجِبِلَّة والسَجيَّة . وفي الحديث : ما من نفس منفوسةٍ تَموتُ ، فيها مثقال ذرةٍ من خير إلا طِينَ عليه يوم القيامة طِيناً أي جُبِل عليه . يقال : طانَه اللَّهُ على طينته أي خلقه على جِبِلَّتِه . وطِينةُ الرجل : خلقته وأصله . . . ويقال لقد طانني اللَّهُ على طِينَتِك . وإنَّه ليَابِسِ الطِّينة إذا لم يكن وطيئاً سَهْلاً .

* * *

* ولكن المفهوم في الكلام أن يقال إن الله تعالى خلقها[1] من مريم بكلمة منه تبارك وتعالى أي أن نقول سبق هذا النفخ الخلق . والله أعلم .

ولئن تكرر ذكر نفخ الروح « فيه » أي في آدم في سورة الحجر ٢٩ ، وسورة السجدة ٩ ، وسورة صّ ٧٢ . فلقد تكرر ذكر نفخ الروح في قصة سيّدنا عيسى ابن مريم عبدُالله ورسولُه مرتين : ذكرت الأولى من سورة التحريم من الآية الثانية عشر . والثانية في سورة الأنبياء : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُوحِنَا . . . ﴾[1] .

* وقوله تبارك وتعالى : (فَنَفَخْنَا فِيهَا) منتهى البيان القرآني الذي لا يمكن أن يأتي بمثله إلا الله الذي لا إله إلا هو ، وذلك لأن النفخ في هذا الصنوّ الحادث وهو جزء من مريم خالصاً مُخْلَصاً ، هو نفخ في مريم ابنة عمران سواء بسواء ، ولذلك قال : (فَنَفَخْنَا

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٩١ .

فِيهَا) حتى لا يتطرق الفكر إلى وجود أي عنصر آخر غير مريم ، وليعلموا أنّما هذا الحادث جزء خالص من مريم ، وفي هذا دليل على أن مريم ابنة عمران لم يمسسها إنس ولا جان ، وليس لها نصيب حتى من الشيطان .

* ولقائل أن يقول : كيف يكون « النفخ فيهَا » والمقصود « النفخ فِيهِ » أي في هذا الحادث من مريم ؟ ويظهر الدليل من القرآن الكريم : (أَلَمْ تَرَوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً . وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً)[1] .

* والقمر في السموات الدنيا ، وصحّ كون السّموات ظرفاً للقمر لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأ المظروف ؛ نقول زيد في المدينة ، وهو في جزء منها .

وقال السهيلي[2] : النفخ من روح القدس بأمر القدوس ، فأضيف القدس إلى القدوس ونزه المقدسة عن الظنّ الكاذب والحدس .

يقول الفقير[3] : وصول النفخ إلى الجوف لا يحتاج إلى منفذ من المنافذ كالفم ونحوه ألَا ترى أن الروح حين دخل جسد آدم دخل من اليافوخ ـ وهو وسط الرأس إذا اشتدّ ، وقبل اشتداده

---

(١) سورة نوح ، آية ١٥ ـ ١٦ .
(٢) القرطبي ٣٣٨/١١ ، وكذلك إسماعيل حقي ٦٦٣/٢ ، وكذلك في تفسير المراغي ٦٧/١٦ وغيرهم اكثر .
(٣) روح البيان ، لإسماعيل حقي ٥٣٥/٢ المطبعة العثمانية ١٣٠٦ .

كما في رأس الطفل يقال له الفادية بالفاء ـ ثم نزل إلى العينين ثم إلى الفم ثم إلى سائر الأعضاء .

* وبقوله (وكَانَ أَمْراً مَقْضِياً) نفخ جبريل عليه السّلام ثم انصرف . فوصلت النفخة إلى جيبها أو إلى درعها . والجيب : الفتحة . والدرع : القميص . وللقميص أربع فتحات . فوصلت النفخة إلى جوفها فدخلت روح عيسى ـ وروح عيسى مخلوقة دخلت روح عيسى في ذلك المخلوق في بطن مريم وسرت النفخة في ذلك الحادث الذي سبق أن حدث بكلمة منه تبارك وتعالى ، فأنشأه الله عزَّ وجلّ خلقاً آخر هو عيسى ابن مريم عبدُاللَّهِ ورسولُه .

كمثل آدم دخلت روح آدم في طينته ـ وروح آدم مخلوقة ـ دخلت روح آدم بنفخة منه أو بروح منه تبارك وتعالى فجعل له السمع والبصر والفؤاد وسبحان الله ربّ العالمين .

وكذلك نفخ الروح في بطون الحوامل : « ثم يرسل المَلَكَ فينفخ فيه الروح »[1] فإن الله تبارك وتعالى وَكَّلَ بالرحم مَلَكاً ينفخ الروح في الجنين فيكتب رزقَ المولود ، وأجله ، وعملَه ، وشقاوته أو سعادته .

* وفي قصة سيّدنا عيسى ليس المَلك أي ملك بل هو جبريل عليه السّلام نعمة من الله تبارك وتعالى : (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ أُذْكُرْ نِعْمَتي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ . . .)[2] .

---

(١) راجع الحديث في صحيح مسلم ١٥/ القدر الذي سبق أن نقلناه .
(٢) سورة المائدة ، آية ١١٠ .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلعَالَمِينَ ﴾[١] .

وآية مريم ظهور الحمل من غير ذكر[٢] ، ترتب عليه أن أمسك عنده تبارك وتعالى روح عيسى . لأن عيسى ليس له أب ولولا آية مريم ما كانت آية عيسى لعلوق أُمه به وإنما تدعى الأرواح إلى أصلاب الرجال أو إلى ظهورهم . قال أُبيّ بن كعب ﷺ : خلق الله أرواح بني آدم ، ولما أخذ عليهم الميثاق ردها إلى صلب آدم . فأمسك عنده روح عيسى عليه السّلام ، فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح إلى مريم ، فكان عيسى عليه السّلام ، فلهذا قال (وَرُوحٌ مِنْهُ)[٣] .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٩١ .
(٢) تفسير المراغي ١٦/٦٧ .
(٣) سورة النساء ، آية ١٧١ .

وَرُوحٌ مِنْهُ

الرُّوحُ بالضم هو النَّفْخُ في كلام العرب[1] ، واستُشْهِدَ على ذلك من قولهم ، بقول ذي الرمة في صفة نار نَعَتَهَا :

وقُلْتُ لَـهُ ارْفَـعْـهـا إِلَـيْـكَ وَأَحْـيِـهـا
بِـرُوحِـكَ واقْتَت لَـهـا قِيـتَـةً قَـدْرَا[2]

ارفعها إليك : يعني النار . وأَحيها بروحك : أي بنفخك نفخاً رقيقاً ، واجعل فوقها من الحطب قليلاً قليلاً ، وهو معنى واقتت لها قيتة قدرا . وفي اللسان : أَقتت لنارك قيتة : أي أَطعمها .

﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ .

معنى قوله (وَرُوحٌ مِنْهُ) : ونفخة منه[3] . وقوله (مِنْهُ)

---

(١) الفخر الرازي ٦/١١٨ .
(٢) من بحر الطويل ، عروضه مقبوضة ، وضربه صحيح .
(٣) الطبري ٦/٣٥ .

يعني ذلك النفخ من جبريل كان بأمر الله وإذنه فهو منه ، وهذا كقوله (فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُوحِنَا)[1] .

قوله (رُوحٌ) ادخل التنكير في لفظ (رُوحٌ) وذلك بُغية التكريم ، فكأن المعنى : وروح من الأرواح الشريفة القدسية العالية . وقوله (مِنْهُ) اضافة لذلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف[2] .

(وَرُوحٌ مِنْهُ) عطف على ما قبله ، أي وذو روح من أمر الله تعالى ، خلقه كسائر الأرواح[3] .

وعن الإمام أحمد بن حنبل وعند ذكر الآية الكريمة : ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ ما نَشَاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ عَلمنا أن روح عيسى ابن مريم كانت في تلك الأرواح الذين خصوا بميثاق آخر في الرسالة والنبوة فأرسل الله تبارك وتعالى روح عيسى عبدالله ورسوله فكان في نفخة جبريل رسول الله إلى مريم .

والحَمْل المعتد به هو بعد نفخ الروح فيه . وتمام التكوين والتخليق والتصوير له علامة . كما ذكرنا في المضغة : « إذا نكست في الخلق الرابع ، كانت « نَسَمَةً مُخَلَّقَةً » . كما قيل في السِّقط : « إذا نُكِسَ في الخلق الرابع ، وكان مُخَلَّقاً أي نبيَّن خلقه عَتَقَتْ به الأمة ، وانقضت به عدة الحُرة » كما ذكرنا في المضغة من قبل .

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٩١ .

(٢) الفخر الرازي ٦/١١٨ .

(٣) تفسير مخلوف ١/١٨٠ .

* أي أن الحمل يبدأ اعتباراً من نفخ الروح فيه .

* وقوله ﷺ في ذلك الحدث الصادق « ثم يرسل الملك فينفخ فيه الرّوح » ظاهره أن إرساله يكون بعد مائة وعشرين يوماً .

* والأطباء يحسبون ابتداء الحمل اعتباراً من يوم اخصاب البُييضة ويحسبون له عشرة أشهر قمرية تزيد أو تنقص .

من أجل ذلك يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً ﴾[1] . ﴿ وَفِصَالُهُ في عَامَين ﴾[2] . ﴿ حَوْلَينِ كَامِلَيْنِ ﴾[3] .

حولين كاملين ووصف بذلك تأكيداً لبيان أن التقدير تحقيقي لا تقريبي[4] .

أي فصالة أربعة وعشرين شهراً ويبقى ستة شهور للحمل بمعناه الحقيقي من القرآن . وإذا أضفنا إليها مائةً وعشرين يوماً التي بعدها يرسل المَلَك فينفخ الرُّوح فيكون المجموع عشرة شهور قمرية تزيد أو تنقص .

* وتبقى مدة الحمل المعتبرة ستة أشهر .

* والحبل غير الحمل تدبر قوله تعالى : (والمطلَّقَات

---

(١) سورة الأحقاف ١٥ .
(٢) سورة لقمان ١٤ .
(٣) سورة البقرة ٢٣٣ .
(٤) الألوسي ٢ - ١٤٦ .

يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ)[1] .

أي الواجب على المطلقات المدخول بهن أن ينتظرن مدة ثلاثة أطهار أو ثلاث حِيَض ثم تتزوج إن شاءت بعد انتهاء عدتها ، وهذا في الطلاق الرجعي (وَلاَ يَحِلُ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا « خَلَقَ » اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ) أي لا يباح للمطلقات أن يخفين ما « خلق » الله في أرحامهن من « حبل »[2] استعجالاً في العدة وإبطالاً لحقّ الزوج في الرجعة[3] . لأن معنى إخفاء ما « خلق » الله في أرحامهن من حَبْل أنه إذا تزوجت بعد انقضاء عدتها وهي مدة ثلاث حيضات وهذه العدة أقل من مائة وعشرين يوماً واحتمال الحمل بنفخ الروح فيما خلق الله في رحمها ، وقد أخفته ، معنى ذلك اختلاط الانساب . خصوصاً وقد أفتى العلماء على أن أقل مدة الحبْل مع الحمل ستة أشهر ولحظتان من أجل ذلك كان التشديد والتهديد بالعقاب في الآخرة بقوله تعالى : (إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) .

ونحن نقول امرأة حامل أو حاملة إذا كانت حُبْلى ، لأن الحبَل مرحلة أولى من الحمل ، ويقال كل حامل تلد[4] ولم نسمع في كلام العرب كل حبلى تلد . ولقد اشتقت كلمة الحَبَل من الحَبْلِ ، والحِبالة التي يصاد بها ، وجمعها حَبائل وفي الحديث

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٢٨ .

(٢) صفوة التفاسير ١/١٤٥ .

(٣) صفوة التفاسير ٣/١٩٥ .

(٤) لسان العرب ٣/٤٦٧ .

النساء حبائل الشيطان أي مصايده ، ويقال حَبَل الصيدَ حَبْلاً واحْتَبَله : أخذه وصاده بالحِبالة . وحَبَلَته الحبالةُ : عَلقَته[1] ، وكل حامل تلد ، وليست كل حُبلى تلد .

والمنيّ ، ماء الرجل والمرأة . ومنيّ بالتشديد ، وشاهد التشديد قوله تعالى : (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمْنَى)[2] .

(يُمْنى) أي « يُقَدَّرُ » بالقدرة الإلٰهية ما تكون منه .

* وكلمة أو جملة « يُقَدَّرُ » تذكرنا بما جاء في سورة المرسلات (أَلَمْ نَخْلُقكُمْ مِن مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ في قَرارٍ مَكِينٍ إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ . « فقَدَرْنَا » فَنِعْمَ القَادِرُونَ)[3] .

* وسمي المنيّ لأنه « يُقَدَّرُ » منه الحيوان . وهذا يذكرنا بقوله تبارك وتعالى (أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِي يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَوْجَينِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى)[4] .

* (يُمْنَى) : أي يُخلط ثم يُقدّر .

* و « إنَّ مَا قُدِّرَ في الرَّحِمِ فَسَيَكُونُ » .

* ويقال : مني الله لك ما يسرك أي قدره لك . وقيل سميت « المنيَّة » للموت لأنها مقدرة بوقت مخصوص ، قال ابن بزي :

---

(١) لسان العرب : حبل ١١/١٧٦ .

(٢) سورة القيامة ، آية ٣٧ .

(٣) سورة المرسلات ، آية ٢٠ - ٢٣ .

(٤) سورة القيامة ، آية ٣٦ - ٣٩ .

المَنِيَّةُ قَدَرُ الموت . والمني ماء الرجل والمرأة أي ما يُقَدَّرُ منه الجنين . والحَبَل لا يكون إلا من الماءين . ويمني بالياء صفة منيّ بمعنى يصب ويراق في الرحم ولذا سميت مِنَى كـ (إِلَى) بكسر الميم وفتح النون وتكتب ألفها ياء ، وهي قرية بمكة لما يمني فيها من القرابين .

* ولقد اختلط على البعض التعبير العلمي لماء المرأة . . . ويمكن تشبيه المبيضين في المرأة كسحابتي صيف تدفقان أو تصبان بالتناوب بويضة في الرحم مرة كل شهر . وهذه البويضة الشهرية من أحد المبيضين هو ما يعتبره الفقهاء « ماء المرأة » . وما تفرزه الغدد البظرية في المهبل تمهيداً للايلاج ماء آخر لا يُخلق ولا يُقَدّرُ منه شيء . .

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾[1] *

وبعد عرض الخلاف بين الفقهاء ، في أقل مدة الحمل للمولود كامل النموّ ، وبين رأي الأطباء . وهي عند الأطباء عشرة أشهر قمرية تزيد أو تنقص .

وهي عند الفقهاء « ستة أشهر ولحظتان »[2] وأكبر ظني أنه لا خلاف بينهم ويمكن اعتبار اللحظة الأولى ممتدة إلى أيام كثيرة وبذلك يزول الخلاف بينهم . وهذه الأيام الكثيرة تستوعب ما قاله الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقُه في بطن أُمه اربعين

---

(١) سورة عبس ، آية ١٨ ـ ١٩ .

(٢) حاشية الباجوري على ابن قاسم الغزي ، في مذهب الإمام الشافعي ١/١١٣ .

يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل المَلَك فينفخ فيه الرّوح . . . » .

وهنا تظهر الحكمة من تصدير هذا الحديث النبوي الشريف بقوله الصادق المصدوق وهي الإشارة إلى أَن هذه الغَيْبِيَّات التي أَخبرها النَّبي ﷺ هي حق لا ريب فيه .

وذهب أَكثر المفسرين إلى أَن الحكمة في تحديد عدة الوفاة بأَربعة أَشهر وعشرٍ ، كما ورد بسورة البقرة **٢٣٤** . هي أَن هذا القدر من الزمن هو الذي يتم فيه تكوين الجنين ونفخ الروح فيه[١]

وتبقى ستة أَشهر للحمل اعتباراً من نفخ الروح فيه . وهذا وإن كان ظناً لحُكمٍ شرعي إلا أَنه أَقرب إلى الحقيقة . والله تبارك وتعالى أَعلم .

* ويظهر أَن الحَبَل شيء ، والحمل شيء آخر .

* كما أَن « الخلق » شيء ونفخ الرّوح شيء آخر .

* كما أَن (النشأَة الأُولى)[٢] شيء ، و (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلقاً آخرَ)[٣] شيء آخر .

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلقاً آخرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحسنُ الخَالِقِينَ﴾

---

(١) تفسير المنار ٢ / ٤٢٠ .
(٢) النشأة الأولى أو التسوية أي المقام الأول .
(٣) الخلق الآخر أو نفخ الروح فيه أي المقام الثاني .

وهدي الله المؤمنين إلى ما اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنه ،

وهو تبارك وتعالى ، أَحكم الحاكمين ، ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ راجع الآية السابعة عشر من سورة المائدة ، ﴿ وَكَانَ أَمْراً مَقْضِياً ﴾[1] .

* ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾[2]

* أي فحملت عيسى عَقِيبَ النفخ[3] ، وذلك بعد أَن نفخ جبريل عليه السّلام[4] ، ووصول روح عيسى في الهواء الذي نفخه[5] . وصلت النفخة وفيها روح عيسى عبدالله ورسوله إلى ذلك الحادث الذي سبق أَن خلقه الله تبارك وتعالى من مريم فكان خَلقاً آخر فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحسنُ الخَالِقِينَ .

* ولئن كانت الفاء تفيد الترتيب مع التعقيب ، وثمّ تفيد الترتيب مع التراخي ، فلنتدبر قوله تبارك وتعالى من سورة المؤمنون .

* وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ .

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِينٍ .

---

(١) سورة مريم ، آية ٢١ .
(٢) سورة مريم ، آية ٣٢ .
(٣) اسماعيل حقي ٢/٥٣٥ .
(٤) الطبري ١٦/٦٢ .
(٥) تفسير الجمل ٣/١٤٤ .

ثُمَّ خَلَقْنَا النُطْفَةَ عَلَقَةً .

فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً .

فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامًا .

فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا .

* ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخر .

فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِين[1] .

* * *

وكذلك نلاحظ في قصة زكريا .

﴿ « فَـ » نَادَتْهُ الملائكة . . . ﴾[2] .

لأن هذا ليس ابتداء ، بل له ما قبله من دعاء زكريا : (قَالَ رَبِّ هَبْ لِي من لدُنكَ ذريةً طَيِّبَةً ،إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)[3].

* * *

أَما في قصة سيّدنا عيسى يقول الله تبارك وتعالى : (إِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) أَي قولِه (كُن) فكان الخلق ابتداء .

فلئن كانت الفاء تفيد الترتيب مع التعقيب فلنتدبر مرة أُخرى

(١) سورة المؤمنون ، آية ١٢ ـ ١٤ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٣٩ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ٣٨ .

قوله تبارك وتعالى من سورة مَرْيَمَ :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًا . . .

فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا « فَـ » أَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا . . ﴾[1] .

* والمعنى أَنه قبل إِرسال المَلك الكريم جبريل عليه السّلام لنفخ الروح فيه . . .

كان ثمة شيء ليعقب عليه بقوله عزَّ وجلّ .

(« فَـ » اتَّخَذَتْ مِن دُونِهِم حِجَاباً) والله تبارك وتعالى أَعلم

نسأَل الله الكريم ربّ العرش العظيم أَن يوفقنا إِلى تدبّر كتابه كلمة كلمة ، وآية آية وحَرْفاً حَرْفاً والله المستعان .

ويظهر لنا أَن الله تعالى (بِكَلِمَةٍ مِنْهُ) عزَّ وجلَّ من سورة آل عمِران أَو (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) من سورة النساء أَي بقوله تبارك وتعالى (كُن) كان هذا الحادث .

أَي أَن خلق هذا الحادث من مريم ، وتحصيله فيها سابق لنفخ الرُّوح فيه كما سبقت سورتا آل عمران والنساء سورةَ مريم في القرآن الكريم ثم كان نفخ الرُّوح الذي ورد في سورةِ مريم متمماً لهذا الحادث والله أَعلم .

---

(١) سورة مريم ، آية ١٦ .

* ويكون ترتيب الأَحداث تماماً كترتيبها في القرآن الكريم أَن الله تبارك وتعالى بكلمة منه أَو بكلمة أَلْقاها إِلى مريم أَي بكلمة (كُن) خلق هذا الحادث من مريم . فكان نفخ الروح فيه فحملت عيسى ابن مريم عبدَاللَّه ورسولَه .

واختلفوا في سنها إِذا ذاك فقيل ثلاث عشرة سنة . وحكي محمد بن الهيصم أَنها لم تكن حاضت بعد . وقيل أَنها عليها السّلام لم تكن تحيض أَصلاً بل كانت مطهرة من الحيض . وكذا اختلفوا في مدة حملها ، وفي القرآنِ لم يعين مدة الحمل فنقول[1] أَنها كما في سائر النساء وهو المروي عن الباقر رضي الله عنه لأَنها لو كانت مخالفة لهن في هذه العادة لناسب ذكرها مع جملة مدائحها عليها السّلام في أَثناء هذه القصة الغريبة[2] .

ونلاحظ (فَحَمَلَتْه) بالفاء التعقيبية .

* ﴿ . . . فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا ﴾[3] .

أَي فاعتزلت بالذي حملته ، وهو عيسى[4] ، وتنحَّت به عن النَّاس مكاناً قصيًّا أَي مكاناً نائياً قاصياً عن الناس .

* ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَخْلَةِ . . . ﴾[5] .

---

(١) المراغي ١٦/٤٤ .

(٢) أبو السعود ٣/٢٧٩ وكذلك الألوسي ٦/٧٣ وكذلك إسماعيل حقي ٢/٥٣٥ وغيرهم .

(٣) سورة مريم ، آية ٢٢ .

(٤) الطبري ١٦/٦٣ .

(٥) سورة مريم ، آية ٢٣ .

أي فجاء بها المخاض إلى جذع النخلة و (المخاض) : وجع الولادة ، يقال : مخضت المرأة إذا تحرك الولد في بطنها للخروج . (إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ) : لتستر به وتعتمد عليه عند الولادة . وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة * وكان الوقت شتاء[1] ، ولعله تعالى ألهمها ذلك لِيُرِيَهَا من آياته ما يُسَكِّن روعتها ، فإن النخلة اليابسة التي لا رأس لها قد أثمرت في الشتاء وهي أقلُ شيء صبراً على البرد - وثمرها إنما هو من جمارها بعد اللقاح ، والجمار رأس النخلة وهو شيء أبيض لَيِّن - وليطعمها الرطب الذي هو طعام النفساء * .

واختلفوا في أي المكان الذي انتبذت مريم بعيسى لوصعه ، فقال بعضهم[2] : كان ذلك في أدنى مصر[3] ، ذكرها كثير من المفسرين . ومصر لم تكن مكان الميلاد وإنما كانت مصر مكان هجرة فقد روي : وخرجت به أمه من الشام وهو في سن الطفولية خوفاً عليه من ملك اليهودية هيرودوس وكان يريد قتله ، وأمر الله مريم أن تنتقل إلى مصر فاحتملها يوسف النجار على حمار له إلى أرض مصر فسكنت به في مصر حتى كان ابن اثنتي عشرة سنة ، ومات هيرودوس فرجعت إلى الشام[3] . والظاهر عندي أنه : لما حضر ولادُها ، يعني مريم ، ووجدت ما تجد المرأة من الطلق ، خرجت من المدينة مغربة من إيلياء ، حتى تدركها الولادة إلى قرية

---

(١) ٢٥ ديسمبر يوم ميلاد المسيح عليه السلام .

(٢) الطبري ١٦/٦٤ .

(٣) الطبري ١٦/٦٥ وكذلك الألوسي ١٦/٧٣ .

من إلياء على ستة أميال يقال لها بيت لحم ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة . فاشتدّ على مريم المخاض ، فلما وجدت منه شدَّةً ، التجأت إلى النخلة فاحتضنتها واحتوشتها(*) الملائكة ، قاموا صفوفاً مُحْدِقِينَ بها[1] * :

* ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنسِيًّا ﴾[2]

(قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا) الكرب العظيم الذي أنا فيه (وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِياً) أي يَا لَيْتَنِي لم أخلق ولم أك شيئاً[1] أو ليتني كنت سقطاً[3] أي يا ليتني كنت سقطاً دفعتني رحم أمي ، امرأة عمران ، ولا نَسَمَةَ لي حتى لا أسمع ما سمعت ذلك بأن مريم الصدّيقة علمت من الملائكة وهي على ما هي عليه من اليقين : « أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » أنبأتها الملائكة أن هذا المولود سيعبد من دون الله ، وهي على ما هي عليه من الورع والتقوى فحَزنت حزناً شديداً . روي أنها سمعت نداء : أخرج يا من يعبد من دون الله[4] . فحزنت لذلك وتمنت الموت ؛ فهي لم تتمنى الموت لضرر نزل بها . وهذا يُذَكِّرنا بقوله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَم ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِن أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ

(*) احتوشتها : أي استدارت حولها الطبري ١٦/٦٥ .
(١) عن ابن عباس .
(٢) سورة مريم ، آية ٢٣ .
(٣) عن الربيع بن أنس عن الطبري ١٦/٦٧ .
(٤) الألوسي ١٦/٧٥ وكذلك البحر المحيط ٦/١٨٣ .

وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا . . . ﴾[1] .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ، وَمَا مِنْ إِلٰه إِلَّا إِلٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[2] .

﴿ مَا اتخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلٰه . إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3] .

بكت مريم الصدِّيقة الكاملة وهي تعلم ، أَن الله سبحانه هو الغني وحزنت لله أَن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، وصدق سيِّدنا ونبيِّنا محمد رسول الله إِذ يقول : « لو تعلمون ما أَعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً »[4] أَو كما قال ﷺ : « من يزدد علماً يزدد وجعاً »[5] زادها أَن يُشرك بالله الذي لا إِله إِلَّا هو زادها ذلك وجعاً إِلى وجعها وكانت حزينة :

* ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحزني قد جَعَلَ ربُّك تَحتك سَرِيًّا . وَهُزِّي إِلَيْك بِجذْع النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عليكِ رُطَباً جَنِياً ﴾[6] .

---

(١) سورة المائدة ، آية ١٧ .
(٢) سورة المائدة ، آية ٧٣ .
(٣) سورة المؤمنون ، آية ٩١ .
(٤) ورد هذا الحديث في صحيحي البخاري والترمذي ومسند أحمد بن حنبل والدارمي وسنن ابن ماجه والنسائي .
(٥) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي : مقدمة الدارمي ٢٧ .
(٦) سورة مريم ، آية ٢٤ ، ٢٥ .

(سَرِياً) أي نهراً غزير الماء . (جَنِياً) أي مجنياً .

* ﴿ فَكُلِي ﴾ من هذا الرطب ﴿ وَاشْرَبِي ﴾ من هذا الماءَ .

* ﴿ وَقَرِّي عَيْناً ﴾ بولدك .

* ﴿ فَإِمَّا تَرِينَّ مِن البَشَرِ أَحداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنسيًّا ﴾[1] .

فإن كلامي يقبل الرد والجدل ولكن يتكلم عني ذلك المولود الذي لا يقبل كلامه الدفع والرد ، أُمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ، ولأنها لا تكلم إلا الملائكة أو تناجي الخالق[2] .

* ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَد جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا . يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمِّكِ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ في المَهْدِ صَبِياً . قَالَ إِنِّي عَبْدُاللَّهِ ﴾[3] .

روي أن عيسى لما سمع كلامهم أقبل عليهم بوجهه من مرقده وأشار بيمينه ثم بدأ يتكلم ووصف نفسه بجملة صفات[4] :

* ﴿ قالَ إِنِّي عَبْدُاللَّهِ ﴾ .

أي أني عبدالله الذي له صفات الكمال ولا أعبد إلا إياه ،

---

(١) سورة مريم ، آية ٢٦ .
(٢) المراغي ١٦/٤٥ .
(٣) سورة مريم ، آية ٢٧ ـ ٣٠ .
(٤) المراغي ١٦/٤٦ .

وفي هذا إيماء إلى أن من كان عبداً لله لا يُتخذ إلهاً من دون الله .

* ﴿ آتَانِيَ الكِتَابَ ﴾ . سينزل عليّ الإنجيل .

* ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ .

أي جعله الله تبارك وتعالى نبيًّا ، وفي هذا براءة لأُمّه ، لأن الله لا يصطفى لنبوته أولاد سفاح .

* ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَاركاً أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ .

* ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ .

* ﴿ وَبرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ .

* ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا ﴾ .

* ﴿ وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾(١) .

* ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ قَولَ الحَقِّ الذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾(٢) .

* ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن نَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(٣) .

أَو ليس الذي أَثمر النخلة اليابسة في الشتاء بقادر على أن

---

(١) سورة مريم ، آية ٣٠ - ٣٣ .
(٢) سورة مريم ، آية ٣٤ .
(٣) سورة مريم ، آية ٣٥ .

يخلق في بطن مريم ما يشاء فسبحان الله الذي لا إله إلا هو (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ)[1] .

وأَما سرّ كون تلك الآية الأُخرى في النخلة ، فلأَنها خُلقت من « طينة آدم » وفيها نسبة معنوية لحقيقة الإنسانية دون غيرها . * وهذا يذكِّرنا بقول سيّدنا محمّد رسول الله : « إني لأَعرف شجرة بركتها كالرجل المسلم النخلة »[2] أَو « شجرة تكون مثل المسلم وهي النخلة »[3] . والله ، تبارك وتعالى ، يخلق ما يشاء ويختار .

* وما قامت به مريم عليها السّلام بالنسبة إلى جذع النخلة بالهزّ وهو عليها هين قريب ، إلى حد ما ، لما قام به جبريل عليه السّلام بالنسبة إلى أُم عيسى بالنفخ ، وفي هذه الآية الأُخرى في النخل إيماء أَن ولدها ، كالثمرة الحلوة ، فيه نفع للنَّاس والله تبارك وتعالى أَعلم .

* * *

(1) سورة الروم ، آية ٥٤ .
(*) « طينة آدم » إسماعيل حقي ٢/٥٣٧ .
(2) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢ ـ ٤١ .
(3) صحيح البخاري . أطعمه ٤٦ .

الشجرة الطيِّبة

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَة . . . ﴾[١] .

(كَلِمَةً طَيِّبَة) : هي كلمة التوحيد ؛ لا إله إلا الله . والمراد بالشجرة الطيِّبة ، إما النخلة كما روي مرفوعاً أو شجرة في الجنة[٢] .

والمراد بالشجرة المشبه بها : النخلة عند الأكثرين[٣] . وروي ذلك عن ابن عباس ، وابن مسعود ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وابن زيد . وأخرج عبد الرزاق والترمذي وغيرهما عن شعيب ابن الحبحاب قال : كنا عند أنس فأُتينا بطبق عليه رطب ، فقال أنس لأبي العالية : كل يا أبا العالية فإن هذه الشجرة التي

(١) سورة إبراهيم ، آية ٢٤ .
(٢) تفسير أبي السعود ٥/٤٤ .
(٣) الألوسي ١٣/٢١٤ .

ذكرها الله تعالى في كتابه : ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ . . . ﴾[1] .

وأَخرج الترمذي أَيضاً والنسائي وابن حبان والحاكم وصححه عن أَنس قال : أُتي رسول الله ﷺ بصاع من بُسر[2] فقال : ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ . . . ﴾ . حتى بلغ ﴿ . . . كُلَّ حِينٍ . . . ﴾[3] .

قال ﷺ هي النخلة .

ووجه تشبيه الكلمة الطيِّبة بمعنى شهادة أَن لا إِله إلا الله بهذه الشجرة الطيّبة بما ذكر أَن أَصل تلك الكلمة ومنشأَها وهو الإِيمان ثابت في قلوب المؤمنين وما يتفرع منها ويبني عليها من الأَعمال الصالحة والأَفعال الزكية يصعد إِلى السّماء ، وما يترتب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه هو الثمرة التي تؤتيها كل حين .

والذاهبون إِلى تفسير الشجرة بالنخلة من السلف اختلفوا في مقدار الحين . واختلفت الروايات عن ابن عباس ، والأَشهر أَنه فسره بـ « ستة أَشهر » وقال : إِن النخلة ما بين حملها إِلى صرامها « ستة أَشهر » وأَفتى رضي الله عنه لرجل حلف أَن لا يكلم أَخاه حيناً أَنه لو كلَّمه قبل « ستة أَشهر » حنث ، وهو الذي قال به الحنفية ، فقد ذكروا أَن الحين والزمان معرّفين أَو منكَّرين واقعين

---

(١) سورة إبراهيم ، آية ٢٤ .
(٢) بسر : تمر النخل الذي لون ولم ينضج
(٣) سورة إبراهيم ، آية ٢٥ .

في النفي أو في الإثبات «ستة أشهر» ويعتبر ابتداء الـ «ستة أشهر» من وقت اليمين[1] .

* ثم أن النخلة أكرم الأشجار على الله فإنها خلقت من فضلة طينة آدم[2] . وولدت تحتها مريم كما ورد في أحاديث المقاصد الحسنة ولذا جاء ثمرتها أحلى وأطيب من سائر الثمار .

* * *

---

(١) الألوسي ١٣/ ٢١٤ .

(٢) إسماعيل حقي البرسوي ٤/ ١١٥ .

رُوح الله

ورُوح الله : حكمه وأمره[1] . والرُوح جبريل عليه السلام . وروي الأزهري عن أبي العباس أحمد بن يحيى أنه قال في قول الله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَينَا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا)[2] .

قال هو ما نزل به جبريل من الدين فصار تحيا به النَّاس أي تعيش به النَّاس . أي أن الوحي سمي رُوحاً لأنه حياة من موت الكفر ، فصار بحياته للناس كالرُوح الذي يحيا به جسد الإنسان[1] .

* وقوله تبارك وتعالى (وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ) .

أي من عنده عزَّ وجلّ والمراد بالروح نور القلب وهو نور يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء من عباده وتحصل به الطمأنينة والعروج على معارج التحقيق ونسميه روحاً مجاز مرسل لأنه سبب

(١) لسان العرب .
(٢) سورة الشورى ، آية ٥٢ .
(٣) سورة المجادلة ، آية ٢٢ .

للحياة الطيّبة الأَبدية . أَو نور القلب وما سماه الأَطباءَ رُوحاً هو الشعاع اللطيف المتكون في القلب وبه الإِدراك[1] .

أَو المراد به جبريل عليه السلام وذلك يوم بدر[2] .

وقيل المراد بالرُوح الإِيمان[3] .

ولقد تكرر ذكر الروح في الحديث كما تكرر في القرآن ووردت فيه على معانٍ ، والغالب منها أَن المراد الروح الذي يقوم به الجسدُ وتقوم به الحياة . وفي مسند الإمام أَحمد بن حنبل . قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّي لأَعلم كلمة لا يقولها أَحد عند حضرة الموت إلا وجد رُوحَه لها رَوحاً[2] حين تخرج من جسده ، وكانت له نوراً يوم القيامة قال : هي الكلمة التي قالها لعمه ، لا إِله إلا الله » .

وفي قوله تعالى : ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَوْحِ اللَّهِ﴾[4].

معناه الرجاء[4] أَي لا تقنطوا من فرجه سبحانه وتنفيسه . وأَصل معنى الرَوح بالفتح : أَي التنفيس ، ثم استعير للفرج . كما قيل له تنفيس من النفس . وقرأَ عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة رُوح بالضم وفسر بالرحمة على أَنه استعارة من معناه المعروف لأَن الرحمة سبب الحياة كالرُوح وإِضافتها إِلى الله تعالى لأَنه منه سبحانه ، وقال ابن عطية : كأَن معنى هذه القراءة لا تيأَسوا من حيّ

---

(١) الألوسي ٢٨/٣٢ .

(٢) روحاً من راح الشيء يريحه مسند الإمام أحمد بن حنبل ١ ـ ٢٨ .

(٣) سورة يوسف ، آية ٨٧ .

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي : البخاري أنبياء ١٩ .

معه « رُوحُ اللَّهِ »[1] الذي وهبه ، فإن كل من بقيت رُوحه يُرجى . وقرأ أُبيّ : ولا تَيْأَسوا من رَحمة الله .

* وهذا يذكِّرنا بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾[2] .

* وهذا يذكِّرنا بقوله عزَّ وجلّ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾[3] .

* وهذا يذكِّرنا بقوله تعالى : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾[4] .

* ﴿ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾[5] .

---

(1) الألوسي ١٣/٤٠ .
(2) سورة مريم ، آية ٢١ .
(3) سورة الجاثية ، آية ١٣ .
(4) سورة النساء ، آية ١٧١ .
(5) سورة آل عمران ، آية ٧ .

عيسى دعوة أُم مريم وزيادة

ورد بإسناد الطبري عن سعيد بن المسيب ، قال سمعت أبا هريرة[1] يقول : سمعت النَّبيّ ﷺ يقول : « مَا منْ بني آدَمَ مولودٌ يولدُ إلَّا قدْ مَسَّهُ الشيطانُ حين يُولَدُ فيستهلُّ صَارِخاً بِمَسِّهِ إيَّاهُ ، غَيْر مَريمَ وابنِهَا » . فقال أبو هريرة : اقرءُوا إن شئتم : (وَإِنِّي أُعيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم)[2] .

قال أبو جعفر بن جرير الطبري : فاستجاب الله لها ، فأعاذها الله وذريتها من الشيطان الرجيم ، فلم يجعل عليها سبيلاً[3] .

وقال أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي : قال علماؤنا : فأفاد هذا الحديثُ أن الله تعالى استجاب دعاء أُم مريم[3] .

---

(١) الطبري ٣/٢٣٩ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٣٦ .
(٣) الطبري ٣/٢٣٨ .
(٤) القرطبي ٤/٦٨ .

تُرى هل استجاب الله الكريم دعاء أُم مريم (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) فقط . أَلا ترون معي أَن الله السَّميع العليم قد استجاب دعاء أُم مريم وزيادة (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرتُ لَكَ مَا فِي بَطْني مُحَرَّراً فَتقبَّلْ مِنِّي ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) .

لقد تضرعت امرأَة عمران إِلى الله الكريم وهي موقنة بالإِجابة تسأَل الله القريب المجيب ، وتوسلت إِليه ، تبارك وتعالى ، بإِسمين من أَسمائه الحسنى . وهذا التوسل من أَقرب الوسائل إِلى الله الحي الكريم الذي يستحي من عبده إِذا رفع يديه أَن يَرُودهما صفراً .

كانت تسأَله عزَّ وجلّ أَن يتقبل ما في بطنها خادماً لبيت المقدس ، وتوسلت إِليه بإِسمين من أَسمائه الحُسنى : (إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) .

تأَمل في كلام الله عزَّ وجلّ فيه مسائل :

(الأُولى) الدعاء (فَتَقَبَّلْ مِنِّي) « والدعاء مخ العبادة »[1] .

(الثانية) التوسل إِلى الله عزَّ وجلّ بأَسمائه الحسنى (إِنَّكَ أَنْت السَّمِيعُ العَلِيمُ) .

(الثالثة) النذر لله (رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً) .

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ١٧٦/٦ الترمذي دعاء ١

(الرابعة) هذا النذر عمل صالح ويمكن التوسل به . وإن المشروع هو التوسل بالأسماء والصفات والأعمال الصالحة[1] .

(الخامسة) (السَّمِيعُ) من صفات الله الذي ليس كمثله شيء ، وصف الله تبارك وتعالى به نفسه ، ووصفه به رسول الله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته ، إثباتاً بلا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تعطيل - قال الله تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) .

وسبحان الله الذي يسمع دعوات عباده وتضرعاتهم ، ولا يشغله نداءٌ عن نداءٍ ولا تمنعه إجابة دعاء شخص عن إجابة دعاء آخر . وسبحان من يجيب المضطر إذا دعاه ، وسبحان من يكشف السوء . وسبحان من يعلم ما تخفي الصدور ، ويسمع كل نجوى ، ولا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السّماء . وقد ذكر (السَّمِيعُ) تبارك وتعالى خمساً وأربعين مرة في القرآن الكريم ، فهو السَّمِيعُ العَلِيمُ ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ، وَهُوَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ، وإِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

(السادسة) (العَلِيمُ) من صفات الله تباركَ وتعالى . . وسبحان البالغ في العلم ، فعلمه تعالى شامل لجميع المعلومات ، محيط بها ، سابق على وجودها . وسبحان الذي لا تخفي عليه خافية ، ولا يعزب عن علمه شيء . وسبحان من عنده « عِلْمُ »

---

(١) كتاب التوحيد ١٨٩ .

السَّاعة وسبحان « عالم » غيب السّموات والأَرْض ، « علاّم » الغيوب . وسبحان من « عَلَّمَ » آدم الأَسماء كلها ، وصلى الله على سيّدنا محمّد عبدالله ورسوله . والله « أَعلم » حيث يجعل رسالته .

وقد ذكر (العَلِيمُ) تبارك وتعالى مائة وأَربعاً وخمسين مرة في كتاب الله الكريم : وهو عَلِيمٌ بالمتَّقِينَ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ، واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ، وَاللَّهُ عليمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَاللَّهُ عليم بالمُفْسِدِينَ ، والله عليم بالظَّالِمِينَ ، وَأَنَّ اللَّهَ بِكل شيءٍ عَليمٌ ، واللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ، وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ، وَهُوَ الحكيمُ العَلِيمُ ، وَهُوَ العَزِيزُ العليمُ ، وَهُوَ الواسِعُ العَلِيمُ ، وَهُوَ العَليمُ الخبيرُ ، وهو العليم القديرُ ، وهو الفتَّاحُ العَلِيمُ ، وهو العليمُ الحَليمُ ، وَهُوَ سُبحانَه شَاكِرٌ عَليمٌ . و (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلاَّقُ العَلِيمُ)[١] .

ويظهر اقتران اسم العليم جلّ جلاله في آيات كثيرة مع أَسمائه : الحكيم والخير والقدير والحليم تنبيهاً لعباده ليدعوه تبارك وتعالى باسمه العليم مقترناً بالإسم الذي يصلح لقضاء حوائجنا : (وللَّهِ الأَسماءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِها) .

وحين يذكر (العَلِيمُ) الذي ليس كمثله شيء ، يكثر ذكر (الرَّحِيمُ) الذي وسعت رحمته كل شيء (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا)[٢] . .

---

(١) سورة الحجر ، اية ١٦ .

(٢) سورة غافر ، آية ٧ .

(السابعة) : تحتاج إلى تمهيد : ذلك بأننا نمدح الله تبارك وتعالى بما تَمَدَّحَ به في كتابه العظيم ولا نحصي ثناءً عليه عزَّ وجلّ .

ولكن وَجَبَ أن نلاحظ أن في اقتران صفة السميع باسمه تعالى العليم قدراً زائداً عليهما مفردين ، فإن السَّمع لله الذي ليس كمثله شيء صفة كمال والعلم كمال آخر ، فله - تبارك وتعالى - ثناء من اسمه (السَّميع) وثناء من اسمه (العَليمُ) وثناء عن اجتماعهما . فتأمله فإنه من أشرف المعارف[1] .

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ ، والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[2] .

أي والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب :

دعاء إمرأة عمران

سألت امرأة عمران الله الذي لا إله إلا هو ، الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن . الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

تضرعت إليه تبارك وتعالى وهو الملك - القادر - المقتدر الحقّ - المبين - الخالق - البارىء - المصوّر - الوهاب - الرزاق - القريب - المجيب - الغنيّ - المغني .

---

(١) التوحيد ١٩١ .
(٢) سورة فاطر ، آية ١٠ .

تضرعت إليه تعالى أن يتقبل ما في بطنها خادماً لبيت المقدس .

* وتوسلت إليه عزَّ وجلّ بإسمين من أسمائه الحسنى (إِنَّكَ أنتَ السَّمِيعُ العَليم) .

* وتقربت إلى الله بعملين صالحين هما :

١ ـ النذر لله وحده .

٢ ـ التوسل بالأسماء الحسنى فهذا سؤال له وتوسل إليه بأسمائه وصفاته ، فما أحقّ ذلك بالإجابة عند المسؤول ، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد[١] .

وهذا التوسل بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى من أقرب الوسائل وأحبها إلى الله « وإن الله عزَّ وجلّ ليستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبتين »[٢] .

(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قالت رَبِّ إنِّي وَضَعْتُها أُنْثَى) قالت امرأة عمران (وَضَعْتُها أُنْثَى) تحسراً على ما رأته من خيبة[٣] رجائها وعكس تقديرها والضمير المتصل عائد إلى النسمة[٤] و (أُنثى) حال منه .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) تعظيم من جهته تعالى لموضوعها

---

(١) التوحيد ١٩١ .

(٢) صحيح الترمذي دعوات ١٠٤ ومسند أحمد ابن حنبل ٥/٤٣٨ .

(٣) إسماعيل حقي ١/٣٢ .

(٤) إسماعيل حقي ١/٣٢١ النسمة أي مريم .

فإنها لما تحسرت على أن ولدت أُنثى قال الله تعالى : إنها لا تعلم قدر هذا الموهوب . والله هو العالم بالشيء الذي وضعته وما علق بـه من العجائب وعـظائم الأُمور فـإنه تعـالى سيجعله وولـده آيـة للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم به[1] .

(وَلَيْسَ الـذَّكَـرُ كـالأُنثَى) مقـول الله أَيضـاً مبيّن لتعـظيم موضوعها ورفع منـزلته والـلام فيهما للعهـد أَي ليس الذكـر الذي كانت تطلبه وتتخيّل فيه كمالاً قصاراه أَن يكون كواحد من السـدنة كالأُنثى التي وهبت لها . فإن دائرة علمها وأُمنيتها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأُمور فهي أَفضل من مطلوبها وهي لا تعلم .

وهاتان الجملتان من مقول الله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ .

﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى ﴾ .

اعتراضان[1] بين قول أُم مريم .

﴿ إِنّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ .

وقولها (إِنّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ) .

وغرض أُم مريم من عرضها على علام الغيوب التقـرب إليه تعالى واستدعاء العصمة لها : فإن مريم في لغتهم بمعنى العابـدة وإظهار أَنها غير راجعة في نيَّتها ، وإن كان ما وضعته أُنثى وأَنها لم تكن خليقةً بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه ، شكراً

---

(١) إسماعيل حقي / ٣٢١ .

لله على هبته ، وفي هذا قبـول لنذرهـا ولم يتطرق إلى فكـرها أي شك في أن الله لم يقبل دعاءَها ولـم ترجع عن نذرها .

لم تيأس من رَوح الله بل سألت الله الغني الكريم ، وهذا من أحبّ الأشياء إلى الله تبارك وتعـالى ، والله يُحِبُّ أن يُسْأل ، وهـو سبحانه على كل شيءٍ قدير ، وهو عزَّ وجلّ بالإجابة جدير .

سألت أم مريم الله الكريم سؤالين :

١ ـ ألا يجعل ابنتها عقيماً .

٢ ـ وأن يعيذها وذرِّيَّتها من الشيطان الرجيم .

﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْـطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[1] .

منتهى الإيمـان والثقـة بـالله تبـارك وتعـالى . وكـأن امـرأة عمران ، أم مريم ، تقول كما قـال أبو يـوسف سيّدنـا يعقوب من قبــل : (عَسَى اللَّهُ أَن يَـأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعـاً ، إِنَّـه هُـوَ العَلِيـمُ الحَكِيمُ)[2] .

ماذا طلبت امرأة عمران ؟

طلبت امرأة عمران أن يتقبل الله تعالى ما في بطنها أن يكون خالصاً لخدمة بيت المقدس .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٣٦ .

(٢) سورة يوسف ، آية ٨٣ .

وهيّا معي لنرى الإجابة من الله القريب المجيب .

لقد تقبل الله ، تبارك وتعالى ، مريمَ من أُمها ما أَرادت بها للكنيسة ، ونبتت في غذاء الله . لقد تقبل الله مريم في بيت المقدس ، وهي التي كانت في بطن امرأَة عمران . تقبلها تبارك وتعالى بقبول حسن وأَنبتها نباتاً حسناً وأَي إِنبات أَحسن من أَن يكون عيسى ابن مريم وأُمه صنوين أَي أَنهما من أَصل واحد ، فهما صنوان .

لقد وهب الله لإمرأَه عمران مريم وعيسى كما وهب الله تبارك وتعالى لسيّدنا إبراهيم إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب :

* ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ، وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[1] .

وفي هذه الآيات من سورة الأَنعام دليل على أَن « عيسى » من ذرية إسحاق بن إبراهيم .

وفي ذكره عليه السلام دليل على أَن الذريَّة يتناول أَولاد البنات لأَن انتسابه ليس إلا من جهة أُمه[2] وليس له أَب أَي أَن عيسى ابن مريم ذريَّة لجدهِ عمران أَو أَن عيسى من ذريَّة عمران وهو

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) الألوسي ١٨٥/٧ .

ابن ابنته مريم[١] . وعُدَّ عيسى من ذرية إبراهيم وإنما هو ابن البنت[٢] .

* ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِه النبوةَ والكِتَابَ ﴾[٣] .

فلم يبعث الله نبيًّا بعد إبراهيم إلا من صلبه[٤] وَوَحَّد الكتاب ، لأنه أراد المصدر كالنبوة والمراد التوراة والإنجيل والفرقان . فهو عبارة عن الجمع .

* ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإنْجِيلَ . وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . ﴾[٥] .

وسبحان من جعل في ذرية إبراهيم النُّبوة والكتاب وعيسى ابن مريم . وما أرغب إلا أن أقول بالدليل والبرهان ، إن عيسى ابن مريم هو من آل عمران ، هو مولود لها ثم لعمران وامرأة عمران .

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٦] .

طلبت امرأة عمران خادماً لبيت المقدس وأعطاها الله رسولاً إلى بني إسرائيل (وَجِيهاً في الدُّنْيَا وَالآخِرةِ وَمِنَ المُقَرَّبِينَ)[٧] .

---

(١) القرطبي ٣٢/٧ .
(٢) القرطبي ٣١/٧ .
(٣) سورة العنكبوت ، آية ٢٧ .
(٤) القرطبي ٣٤٠/١٣ .
(٥) سورة آل عمران ، آية ٤٨ ـ ٤٩ .
(٦) سورة آل عمران ، آية ٣٤ .
(٧) سورة آل عمران ، آية ٤٥ .

بل هو آخر الرسل من بني إسرائيل .

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسّلام على سيّدنا محمّد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين .

ويظهر لنا أن عيسى ابن مريم هو استجابة دعوة إمرأة عمران وزيادة .

زيادة الله الغني الكريم الذي لا إله إلا هو يعطي الحُسنى للذين أحسنوا وزيادة .

وإن الدعاء لا يضيع عند الله الذي لا إله إلا هو ، البرُّ الرحيمُ الكبيرُ المتعال ، وكفى بالله وكيلاً . و ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾[1] .

* * *

عيسى عبدالله ورسوله :

وآية الله في خلق عيسى بكلمته ثم جعله بشراً سميعاً بصيراً بما نفخ فيه من روحه ، كآيته في خلق آدم على هيئته منجدلاً في طينته ثم نفخ فيه من روحه . فخلقهما كان بغير السنَّة العامة في خلق النَّاس من ذكر وأنثى[1] . فلما لم يبعد تخليق آدم من غير أب فلأن لا يبعد تخليق عيسى من غير أب كان أولى وهذه حجة ظاهرة[2] أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِين .

---

(١) سورة إبراهيم ، آية ٣٩ .

(٢) المراغي ٦/٢٩ .

(٣) الفخر الرازي ٨/٥٣ .

ومع ذلك فقد قدم على سيّدنا محمّد ﷺ وفد من نصارى نجران فقالوا لسيّدنا محمد : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : مَنْ هُوَ ؟ قالوا : عيسى ، تزعم أنه عبدالله . فقال سيّدنا النّبيّ : أجل ، إنه عبدالله .

قالوا : فهل رأيت مِثل عيسى ؟ ثم خرجوا من عنده فجاء جبريل عليه السّلام بأمر ربّنا السميع العليم فقال : قل لهم إذا أتوك : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ . . .) . إلى آخر الآية من سورة آل عمران **٥٩** .

فإن قالوا : خُلق عيسى من غير ذكر ، فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة ، من غير إنثى ولا ذكر ، فكان ، آدم ، كما كان عيسى لحماً ودماً وشعراً وبشراً . فليس خلق عيسى من غير ذكر بأعجب من هذا . أكان لآدم أب أو أم ؟ (خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ) وكذلك خلق الله عيسى في بطن مريم أو كما كتب الطبري : وكذلك خَلقت هذا في بطن هذه[1] .

(الحَقُّ مِن رَبِّكَ) أي أن هذا البيان هو الحقّ من ربّك والمقصود الدلالة على كون عيسى مخلوقاً كآدم عليهما السّلام هو الحقّ لا ما يزعمه النصارى[2] . (فَلَا تَكُن مِنَ المُمْتَرِينَ)[3] .

(فَمَنْ حَاجَّكَ) أي فمن جادلك من وفد نصارى نجران

---

(١) الطبري ٣/٢٩٦ .
(٢) الألوسي ٣/١٦٥ ، ١٦٦ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ٦٠ .

(فِيهِ) أي في شأن عيسى عليه السّلام لأنه المحدث عنه وصاحب القصة (مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ) أَنَّـهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحـده لا شريك له ، وأن عيسى عبدُاللَّهِ ورسولُه . (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَـاءَنا وَأَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُم وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَـل لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكَاذِبِينَ)(١) .

وهكذا فَصَل الله تبارك وتعالى بين نبيّه ، محمّد ﷺ ، وبين الوفد من نصارى نجران بالقضاء الفاصل ، والحكم العادل ، وأمره إن هم تولوا عما دعاهم إليه من الإقرار بوحدانية الله ، وأنه لا ولد له ولا صاحبـة ، وأن عيسى عبده ورسـوله . وإن أبـوا إلا الجدال والخصومَة ، أمره أن يدعوهم إلى الملاعنة ، ففعل ذلك رسول الله ﷺ ، فلمـا فعل ذلـك رسول الله ﷺ ، انخـزلـوا ، فـامتنعـوا من الملاعنة ، ودعوا إلى المصالحة . بعد أن تـواعدوا أن يـلاعنوه ، وواعدوه الغد . وتورطوا لعلمهم أن الرسول ﷺ على حقّ .

فلمـا غـدوا ، غـدا النَّبيّ ﷺ محتضنـاً حسنـاً ، آخـذاً بيـد الحسين ، وفاطمة تمشي خلفه ، فدعاهم إلى الذي فـارقوه عليـه بالأمس أي دعاهم إلى المباهلة أن يقولـوا اللهم العن الكاذبين : فقالوا نعوذ بالله ، ثم دعاهم ، فقالـوا : نعوذ بـالله مراراً فـأبوا أن يلاعنوه وصالحوا النَّبيّ ﷺ على الجزية لعلمهم أنه هو النَّبيّ الذي يجدونه في التوراة والإنجيل .

وعن الشعبي(٢) . فقال رسول الله ﷺ : « لقد أتاني البشير

---

(١) سورة آل عمران ، آية ٦١ .

(٢) الألوسي ٣/١٦٧ .

بهلكة أهل نجران حتى الطير على الشجر لو تموا على الملاعنة »
وعن جابر « والذي بعثني بالحقّ لو فعلا[1] لأمطر الوادي عليهما ناراً » . وما تخلفوا عنه يومئذ إلا أنهم يعلمون أن سيّدنا محمّد النَّبيّ على حقّ ، وليس دعوة النَّبيّ كغيرها . فقال النَّبيّ ﷺ : « لَوْ خَرَجُوا لاحتَرقُوا »[2] . هذا في الدنيا فما بال الآخرة . اللهم أجرنا من النار اللهم إنا نشهدك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله وحدك لا شريك لك ، وأن محمّداً عبدك ورسولك . وإن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٍ مِنه ، وأن الجنَّة حق والنَّار حَقّ .

والله تبارك وتعالى ، خلق السّموات والأرض ويأتي بالشمس من المشرق ، والشمس تجري لمستقر لها (وَكُلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)[3] .

إنَّما أمره إذا أراد أن يأتي بالشمس من المغرب (ليَوم لاَ رَيْبَ فِيهِ) (وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ) .

إن هي إلا الكلمة تُنشيء ما تراد له النشأة الآخرة[4] فتكون . وكذلك المسيح عيسى ابنُ مريمَ رسولُ اللَّهِ (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ) إن هي إلا الكلمة أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ فكان خلقه من مريم[5]

---

(١) أسقف بخران ومساعده .
(٢) الطبري ٣/٣٠٠ .
(٣) سورة يس ، آية ٤٠ .
(٤) (النشأة الآخرة) : هي نشأة القيام من القبور إسماعيل حقي ٢/٩٧٠ .
(٥) الطبري ٣/٢٩٥ .

وحَصَّله فيها[1] فكان نفـخ الروح فيـه . أي أن مثل عيسى كمثـل آدم .

* وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتفكَّرُونَ .

* ﴿ هُـوَ اللَّهُ الَّذي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ عَـالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ هُـوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الذي لا إله إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّح لَهُ مَا في السَّمٰواتِ والأَرضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾.

* ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ وَمَا مِن إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

* ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا العِلْم قَائِمـاً بِالقِسْطِ ، لَا إِلَه إِلَّا هُوَ العزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ .

---

(١) البحر المحيط ٣/٤٠٠ .

حديث الرحمة المهداة صلى الله عليه وسلم

* ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ .

* ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ لمن آمن به[1] .

ورحمة من الله تبارك وتعالى هذا الحديث النَّبويّ الشريف : فإن عند البخاري[2] ومسلم[3] وبإسناد الإمام أحمد بن حنبل[4] عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمَّداً عبده ورسولُه ، وأن عيسى عبدالله ورسولُه وَكَلِمتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وأن الجنَّةَ حقّ والنار حقّ ، أدخله الله تبارك وتعالى الجنَّةَ على ما كان من عمل » .

---

(١) القرطبي ١١/٩١ (ورحمة منا) للمؤمنين . الألوسي ١٦/٧٣ ـ سورة مريم ، آية ٢١ .

(٢) الأنبياء ٤٧ .

(٣) إيمان ٤٦ .

(٤) ٥/٣١٤ .

الختام

أحمدُ الله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأصلي وأسلّم على سيِّدنا محمّد أولَ المسلمين وخاتمَ الأنبياء والمرسلين .

أما بعد ، فقد جاءَ في تفسير قوله تبارك وتعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)[1] .

(أَحْسَنُ عَمَلاً) : أي أصوبه وأخلصه[2] ، ولا أملك إلا أن أدعوا ربّي الكريم أن يجعل هذا العمل أصوبه وأخلصه ، ثم يتقبله مني إنه هو السّميع العليم .

والفضل كلُّه لله الذي لا إله إلا هو . فلولا (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)[3] .

---

(١) سورة الملك ، آية ٢ .

(٢) الألوسي ٢٩/٥ . .

(٣) سورة هود ، آية ١ .

ولولا هذا الحديث النّبوي الشريف هذا الحديث الذي هو منتهاه الجنَّة على ما كان من عمل ، ما كتبت ما كتبت ؛ يقول سيِّدُنا النَّبيُّ ﷺ : « من شَهدَ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » شَهِدَ بلفظ الماضي وفتح همزةِ أنه على معنى بأنه . وهذه أعظم[1] شهادة في كتاب الله تعالى وهي أعلى درجات العلم وكفى بالله شهيداً : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا العِلْم)[2] .

وفي شَهِدَ مسنداً إلى الله تعالى استعارة تصريحية تبعية المراد أنه سبحانه دلّ على وحدانيته وسائر كمالاته بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غيره وما نصبه من الدلائل التكوينية في الآفاق والأنفس وبما أُوحي من آياته الناطقة بذلك كسورة الإخلاص وآية الكرسي وأسمائه الحُسنى فشبه سبحانه تلك الدلالة الواضحة « بشهادة الشاهد »[3] في البيان والكشف . وهذه درجة فوق درجة الإيمان . كما أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، درجة الإحسان . فما أصوبَ قولنا لا إله إلا الله ، وما أخلصَ أن « نشهد » أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادةً خالصةً من قلوبنا وكأننا نراه تعالى فإن لم نكن نراه ، في الدنيا ، فهو تبارك وتعالى يرانا في الدنيا والآخرة ونراه إن شاء الله في الآخرة ؛ اللهم إنا نسألك أن تجعلنا مع الوجوه الناضرة التي هي إلى ربّها ناظرة . وصلِّ اللهم على سيّدنا محمّدٍ عبدِك ونبيِّك ورسولِك النَّبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً كثيراً .

---

(١) الألوسي ٣/٩١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٨ .

(٣) الألوسي ٣/٩٢ .

* ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1] .

أي، ولقد سهلنا القرآن للفهم والتدبّر والحفظ لما اشتمل عليه من حسن النظم وسلاسة اللفظ وشرف المعاني وصحتها ، فهل من متذكر مُتعظ متدبر .

* (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ) . هو القرآن الكريم الذي لا نهاية لحسنه ولا غاية لجمال نظمه وملاحة معانيه ، وهو أحسن مما نـزل على جميع الأنبيـاء والمرسلين وأكمله وأكثـره إحكـامـاً[2] ، وأيضاً أحسن الحديث لفصـاحته وإعجـازه ، وأيضاً لأنـه كلام الله وهو قديم ، وأيضاً لكونه صدقاً كله من أجل ذلك ، سمي حديثـاً ولأن النَّبيّ عليه الصلاة والسّلام كان يُحدث به قومه (كِتَاباً) بدل من أحسن الحديث (مُتَشَابِهاً)[3] .

أي يشبه بعضه بعضاً في هدايتـه وبلاغتـه وصحة معـانيه ، وإحكام آياته وسلامته من التناقض والتفاوت والاختلاف .

﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾[4] .

أَلاَ للَّهِ الدينُ الخَالِصُ من الهوى والشك والشـرك . والدين الخالص الإسلام[5] والـدين الخالص مـا يكون جملتـه لله (. . .

---

(١) سورة القمر ، آية ١٧ .
(٢) إسماعيل حقي ٣/٣٩١ .
(٣) سورة الزمر ، آية ٢٣ .
(٤) سورة الزمر ، آية ٣ .
(٥) عن الحسن ، إسماعيل حقي ٣/٣٧٣ .

حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ)[١] .

والدين أعزّ شيء على الإنسان فإذا لم يجد فيه مجالاً للبحث فكيف يزداد ويقوي ؟ . ولقد وجدت في حديث سيِّدنا رسول الله ﷺ : « وأن عيسى عبدُاللَّه ورسولُه (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ) » مجالاً للبحث ، وكانت الجنَّة ـ ونحن نؤمن بها وهي حقّ ـ أحسن حافز للعقل . وما كان هذا العمل سهلاً هيناً إذاً لما كان للعقل فيه من نصيب . فلقد استعنت بالله الذي لا إله إلا هو أن يهديني إلى ما اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنه ابتغي مزيداً من الثواب ثم الاستعانة بدليل العقل للتخلص من ظلمة التقليد للوصول إلى ضياء الاستدلال والبيِّنة وكان مرجعي دائماً المثل الذي ضربه الله لنا : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ) ، فكان هذا العمل بفضل الله تعالى وجوده . وكان الجهد مِنَّةً[٢] من الجوَّاد الذي لا إله إلا هو . فهذا الجهد وعليه التُكْلَان (رَبُّ الْمَشْرِقِ والمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً)[٣] .

(رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ) مرفوع على المدح أي هو ربهما وخالقهما ومالكهما وما بينهما من كل شيء ، يريد جنس المشارق والمغارب في الشتاء والصيف (لَا إِلَـهَ إِلَّا هُـوَ) استئناف لبيان ربوبيته ينفي الألوهية عما سواه (فَاتَّخِذْهُ) لمصالح دينك ودنياك[١]

(١) سورة الأنفال ، آية ٣٩ .
(٢) منة أي نعمة . . وفي أسماء الله تعالى : الحنان المنان ولله المنة على عباده وهو سبحانه المعطي المنعم .
(٣) سورة المزمل ، آية ٩ .

والفاء لترتيب الأَمر وموجبة على اختصاص الأُلوهية والربوبية به عزَّ وجلّ (وَكِيلاً) موكولاً ومفوضاً إليـه لإصلاحهـا وإتمامهـا واسترح أَنت[١] . قـال الإمام القشيـري[٢] رحمـه الله إن الله هـو المتـولي لأَحوالِ عباده يصرفهم على ما يشاء ويختار ، وإذا تولى أَمر عبـد بجميل العناية كفاه كل شغل وأَغناه عن كل غير . فلا يستكثر العبدُ حوائجه لعلمه أَن الله كافيه . ومن رضي بالله وكيـلاً أَعطاه الأَجـر وحقق آماله وأثنى عليه ولطف به في دقائق أَحوالِه بما لا يهتدي إليه آماله بتفاصيل سؤاله . ومن رضي بالله تعالى وكيلاً وجـد إلى كل خير سبيلاً . اللهم إنا نسأَلك أَلَّا تكلنا إلى أَنفسنـا طرفـة عين وأَن تجعلنا أُمناء على أَنفسنا في استحقاق حقـوق الله وفرائضـه . وأَن نسمع كلامه ، إنه هو السّميع العليم ؛ (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)[٣] .

والوكيل في أَسماء الله تعالى هو القيم والكفيل بالأَمر الذي يوكل إليه وهذا على الإطلاق هو الله تعالى[٤] ، وهو المقيم الكفيل بـأَرزاق العباد ، وحقيقتـه أَنه يستقـلُّ بأَمـر المَـوْكـول إليـه . وفي التنزيل : (أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً)[٥] .

(وَكِيـلاً) أَي ربًّا تكلون إليـه أُموركم غيـري فالـوكيـل هـو

(١) إسماعيل حقي ٤/٥٠٣ .
(٢) سورة النساء ، آية ١٣٢ .
(٣) سورة النساء ، آية ١٣٢ .
(٤) الألوسي ٥ / ١٤٨ .
(٥) سورة الإسراء ، آية ٢ .

الموكول إليه أي المفوض إليه الأمور وهو الربّ . قال ابن الجوزي[1] قيل للربّ وكيل لكفايته وقيامه بشؤون عباده . وقال أبو اسحاق[2] . الوكيل في صفة الله تعالى الذي توكَّل بالقيام بجميع ما خلَقَ . وقال بعضهم : الوكيل الكفيل ونِعْمَ الكفيل بأرزاقنا ، وقال نبي (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ)[3] .

كافِينَا اللَّهُ ونِعْمَ الكافي كقولك : رازقنا الله ونعم الرازق .

والمُتَوَكِّل على الله : الذي يعلم أن الله كافِلٌ رزقَه وأَمرَه فيركن إليه وحْدَه ولا يتوكَّل على غيره[4] .

* * *

﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الحَقَّ ، إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ ، إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾[5] .

* (إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ) . كقوله ﷺ : « إني عبدالله في أُم الكتاب لخاتم النبيين . . » .

---

(١) الألوسي ١٥ـ ١٤ .

(٢) لسان العرب ١١ ـ ٧٣٤ .

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٧٣ .

(٤) لسان العرب ١١ / ٧٣٤ .

(٥) سورة النساء ، آية ١٧١

وكـذلك المسيـح عيسى ابن مريم عبـدُاللَّه ورسولُـه في أُم الكتاب .

* (وَكَلِمَتُـهُ أَلْقَاهَـا إِلى مَرْيَمَ) : أَي كـان خلقه من مـريم بكلمة كن .

* (وَرُوحٌ مِنْهُ) فكان نفخ الروح فيـه . أَي أَن مثل عيسى كمثـل آدم . (قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيـرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ . . .)[1] .

﴿ وَمَـا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَـالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَـاسْأَلُـوا أَهْلَ الذِكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] .

والعلم من أَخصّ صفات الربوبية لم يثبت على وجه الكمال والإِحاطة أَحـد سواه ، سبحـانه ، ولـو كان بـطريق الفيض منه[3] تبـارك وتعالى ، على أَن ظـرف الممكن يضيق عن الإِحاطـة فمـا يجهله كـل أَحد أَكثـر ممـا يعلمـه بكثيـر . وقـد يقـال على بعض الاعتبارات أَن ما يعلمه كل أَحـد متناهٍ ومـا يجهله غير متنـاه . ولا نسبة بين المتناهي وغير المتناهي أَصلاً فلا نسبة بين معلوم كل أَحد ومجهوله .

﴿ وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾[4] .

*** آمين ***

---

(١) سورة يوسف ، آية ١٠٨ ـ ١٠٩

(٢) سورة الأنبياء ، آية ٧ .

(٣) الألوسي ٢٣ / ٩ .

(٤) سورة طه ، آية ١١٤ .

المراجع

القرآن الكريم .

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النَّبويّ - ليدن ١٣٣٥ هـ .

جامع البيان ، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠ هـ .

الجامع لأحكام القرآن ، لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفي سنة ٦٧١ هـ .

التفسير الكبير للفخر الرازي المتوفي سنة ٦٠٦ هـ .

فوائد في مشكل القرآن ، لعز الدين بن عبد السّلام المتوفي سنة ٦٦٠ هـ .

لسان العرب ، لابن منظور المصري المتوفي سنة ٧١١ هـ .

البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي الغرناطي القاهري المتوفي سنة ٧٤٥ هـ .

الروح ، لابن القيم المتوفي سنة ٧٥١ هـ .

تفسير أَبي السعود ، لأَبي السعود محمد بن محمد العمادي المتوفي سنة ٩٥١ هـ .

روح البيان ، لإسماعيل حقي المتوفي سنة ١١٣٧ هـ .

تفسير الجَمَل ، لسليمان الجَمَل المتوفي سنة ١٢٠٤ هـ .

كتاب التوحيد ، لمحمّد بن عبد الوهاب المتوفي سنة ١٢٠٦ هـ .

روح المعاني ، للأَلوسي المتوفي سنة ١٢٧٠ هـ .

تفسير المنار ، للإمام الشيخ محمد عبده المتوفي سنة ١٣٢٣ هـ .

تفسير المراغي ، لأَحمد مصطفى المراغي المتوفي سنة ١٣٦٥ هـ .

تفسير مخلوف ، لحسنين مخلوف . حفظه الله .

فضيلة الشيخ الدكتور عبد العال أَحمد عبد العال ، أُستاذ التفسير والحديث بجامعة الأَزهر بالقاهرة ـ وجامعة أُم القرى بمكة المكرمة . حفظه الله .

أَي بنيّ ، مذكرات بيمين والدي حسين بن عبد الفتاح بن أَحمد الجمل رحمهم الله ، المتوفي في ربيع الأَنوار سنة ١٣٥١ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجمع البحوث الإسلامية

إدارة البحوث والنشر

السيد الأستاذ الدكتور

حسن عز الدين الجمل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فإيماء الى الطلب المقدم من سيادتكم بشأن فحص كتاب:
" إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم " نفيد أنه بفحص الكتاب
المذكور اتضح أنه قد التزم النصوص القرآنية والأحاديث النبوية
الصحيحة فى شرح الحقائق السلفية المقبولة عن نواحى الاعجاز
فى خلق عيسى بن مريم عليه السلام ، وأنه ليس سوى عبدالله ورسوله ،
وأن خليقته عليه السلام شيء ونفخ الروح فيه شيء آخر .

ومن ثم فإن الادارة تسمح بنشره وتداوله .

نخطركم بذلك .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تحريرا فى : العاشر من ربيع الأول سنة ١٤٠٤ هـ

(١٤) الرابع عشر من ديسمبر سنة ١٩٨٣ م

مدير عام

ادارة البحوث والنشر

٢١/١٢/٨٣

سعد السيد عمر